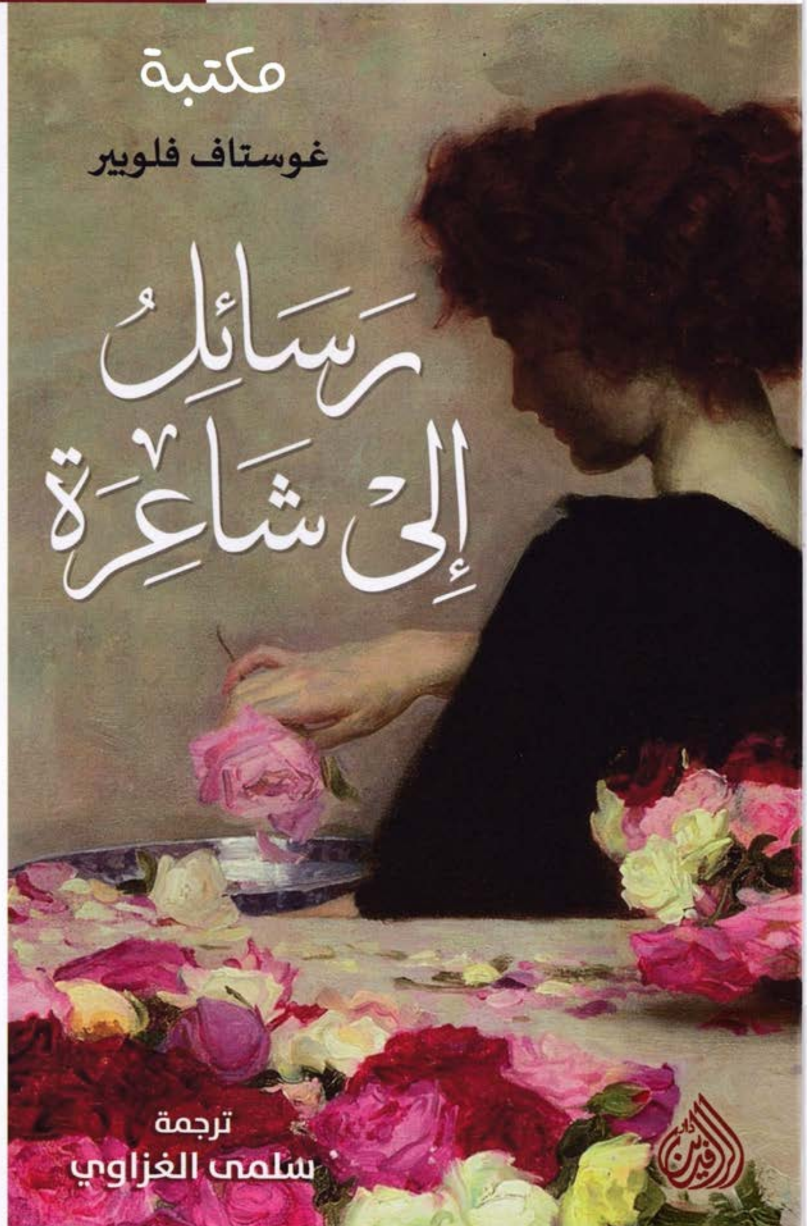
أدب مراسلات



مكتبة

غوستاف فلوبير

رسائل إلى شاعرة

ترجمة
سلمى الغزاوي

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

رسائل إلى شاعرة

رسائل إلى شاعرة

غوستاف فلوبير

ترجمة: سلمى الغزاوي

العنوان بالفرنسية:

lettres à Louise colet

ترجمة العنوان باللغة الإنكليزية:

The lettres to Louise colet

By Gustave Flaubert

Translated by Salma Laghzaoui

الطبعة الأولى: يناير ـ كانون الثاني، 2025 (1000 نسخة)

بغداد ــ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: +9647811005860/+9647714440520

www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

ISBN: 978 - 9922 - 721 - 04 - 0

غوستاف فلوبير

رسائل إلى شاعرة

مراسلات

ترجمة:
سلمى الغزاوي

www.daralrafidain.com

الفهرس

مكتبة
t.me/soramnqraa

إلى لويز كوليه[1]

ليلة الثلاثاء (4 أغسطس 1846)، (رُوان)

قبل اثنتي عشرة ساعة كنا لا نزال مع بعضنا البعض، أمس، في مثل هذا الوقت، كنت أحتضنك بين ذراعيَّ.. أتذكرين؟.. كم تبدو هذه الذكرى بعيدة بالفعل!

هذه الليلة ساخنة وعذبة في الوقت نفسه، من نافذتي، أسمع شجرة التوليب الكبيرة، وهي ترتعش على وقع الريح، وحينما أرفع رأسي، أرى انعكاس القمر فوق صفحة النهر. خُفَّاكِ الصغيران يقبعان هنا بينما أكتب لك هذه الرسالة، إنهما أسفل ناظري، وأنا أتأملهما. لقد أنهيت للتوّ ترتيب كل الأشياء التي منحتني إياها، وأنا وحيد تماماً، في غرفتي مُحكمة الإغلاق، إن رسالتيك مخبأتان بعناية داخل الكيس المطرز، سأعيد قراءتهما بعدما أختم رسالتي. لم أرغب في أن أكتب لك على ورق رسائلي لأن طرفيه يحدهما اللون الأسود، لأنني لا أريد أن يصلك مني أي شيء يصيبك بالحزن، كوني لا أود أن أجلب لك سوى الفرح وأغمرك بالهناء والسكينة الدائمين، عساني أكافئك قليلاً على كل ما منحتني إياه بيديك

(1)لويز كوليه: 1810/ 1876 (فرنسا)، صاحبة صالون أدبي وشاعرة ومترجمة، تعرفت على غوستاف فلوبير في صالونها الأدبي ونشأت بينهما قصة حب لم تستمر طويلًا.

الكريمتين من مشاعر حب سخية. أخشى ما أخشاه أن أكون بارداً، جافاً، وأنانياً، والرب وحده يعلم ما الذي يعتمل في صدري في هذه الأثناء. يا لها من ذكرى! ويا له من حنين! آه، كم كانت جولاتنا على متن العربة رائعة، سيما الجولة الثانية، التي كانت محاطة ببريق مذهل، إنني أتذكر لون الأشجار تحت ضوء القناديل، ونحن نتأرجح داخل العربة، كنا بمفردنا، تغمرنا السعادة، وكنت أتأمل وجهك رغم عتمة الليل، كون عينيك تضيئان ملامحك بكاملها، يهيأ لي أن ما أكتبه يبدو سيئاً، وأنك ستقرئينه ببرود، لأنني لم أقل أيّاً مما أردت قوله ببساطة، إن جملي تشتبك كتنهدات، ولكي تصبح قابلة للفهم، عليك أن تملئي الفراغات التي تفصل كل جملة عن الأخرى، ستفعلين هذا، أليس كذلك؟ هل ستجعلك الحروف والرموز التي تتضمنها رسائلي حالمة؟ مثلي تماماً، وأنا أرنو إلى خفيك الصغيرين البنيين، وأتخيل حركات قدميك الدافئتين عندما كنت تنتعلينهما..

حينما عدت إلى هنا، وجدت أمي تنتظرني في محطة القطار، لقد بكت وهي تلمحني عائداً، كما بكيتِ أنت حين هممتُ بالرحيل، أترين، إن بؤسنا يكمن في أنه ليس بمستطاعنا التنقل من مكان إلى آخر دون أن يكلفنا ذلك انسكاب دمعات من أعين من نودعهم، ومن نعود إليهم، يا لها من مفارقة مثيرة للسخرية القاتمة.

هنا، وجدت العشب مخضراً، والأشجار باسقة والماء متدفقاً، كما كان الحال قبل مغادرتي، أما كتبي، فإنها ما زالت في المكان نفسه الذي تركتها فيه، لم يتغير شيء! الطبيعة في الخارج تجعلنا نحس بالخجل من أنفسنا، وكأن سكونها العميق يجرح كبرياءنا. لا يهم، دعينا لا نفكر في المستقبل، في مآلنا، أو في شيء آخر.. إن التفكير هو بمثابة وسيلة للتعذيب، فلنترك

رياح الحب تتحكم في أشرعة قلبينا وتقودنا كما يحلو لها، دون أن نهتم للعقبات، سنرى ما تحمله لنا الأقدار!

قرأت لدى عودتي جزءاً كبيراً من مجلد مهم، ولقد لامست روحي عدة مقاطع منه، سأحدثك لاحقاً عنه بالتفصيل، أتراك تستشفين أن أفكاري مشتتة الآن، والتفكير العقلاني ينقصني الليلة. وددت فقط أن أبعث إليك بقبلة قبل أن أذهب إلى النوم، وأن أخبرك بأنني أحبك، وأعترف بأنني ما إن ودعتك، وأنا أبتعد عنك رويداً رويداً، شرع تفكيري يحلق صوبك، بل يبدو لي أن أفكاري كانت تسابق الأدخنة التي تتلاشى خلف القطار.

قبل أن أختم الرسالة، أطبع قبلات لا نهائية على ذقنك المحبب إليّ، وعلى بشرتك الناعمة جداً، وأضع قلبي فوق صدرك.

إلى اللقاء! مع محبتي وإخلاصي.

* * *

ليلة الخميس (6 أغسطس1846)، الحادية عشرة مساء

الرسالة التي وصلت منك هذا الصباح موشاة بالحزن، وبالألم المستكين، إنك تعرضين علي محوي من ذاكرتك إذا كان هذا الأمر يناسبني، كنت أعلم أنك إنسانة سامية، طيبة، بل ممتازة! ولكنني لم أكن أعلم أنك إنسانة عظيمة إلى هذا الحدّ! سأكرر قولي لك: أحس أنني ضئيل مقارنة بك.

هل تعلمين أنك تقولين لي كلاماً قاسياً؟ أسوأ ما في الأمر أنني أنا الذي قمت باستفزازك لتقوليه، إذن، أنت تردين لي الصاع صاعين من خلال رغبتك في معاقبتي بردك. تسألينني: ما الذي أريده منك؟ في الحقيقة، لا أعرف على وجه التحديد، كل ما بوسعي قوله إن ما أريده حقّاً هو أن أحبك بلا حدود، آه، فقط لو كان بوسعك الاطلاع على فؤادي، إذ ذاك كنت ستعرفين المكانة التي تحتلينها في شرايينه! لقد لاحظت أنك تعانين أكثر مما تبوحين بذلك، ويبدو وكأنك أرغمت نفسك على كتابة هذه الرسالة، أوَ ليس صحيحاً أنك بكيت كثيراً قبل أن تخطي هذه الكلمات التي تلوح منكسرة، ونستشعر فيها الكآبة والأسى، وكذا، نكاد نسمع الصدى الواهن لصوتك المنتحب، هيا اعترفي إذن بأنك ببساطة مررت بيوم سيئ، بسبب افتقادك لرسالة مني، كوني صريحة، ولا تتشبثي بالإنكار، كما كنت أفعل مراراً بدافع من عزة نفسي. لا تحبسي دموعك، كي لا تتسَاقط على قلبك

وتحفر فيه هاويات عميقة. ثمة فكرة تراود ذهني علي أن أصرح لك بها: أنا متيقن من أنك تحسبينني أنانياً، وهذا الاعتقاد يعصف بك، هل تعتقدين ذلك لأنني أبدو أنانياً بالفعل؟ تعلمين، إن المظاهر خداعة، إلا أنني أعترف بأني قد أكون أنانياً كجميع البشر، وربما بدرجة أقل من الكثيرين منهم، وربما بدرجة تفوق أنانية الآخرين، من يدري؟ ثم إننا صرنا نلوح بكلمة «أنانية» في وجه بعضنا البعض دون أن نعلم ما الذي نعنيه فعلاً بقولها، لكن، من منا ليس بأناني، بطريقة أو بأخرى؟ ألسنا جميعاً، رغم اختلافاتنا، نبحث طيلة حياتنا عن إرضاء طبيعتنا وغرائزنا؟ لقد كان «سان فانسان دي بول» يلبي الرغبات التي تمليها عليه ميوله إلى فعل الخير، بينما كان «كاليغولا» يذعن لرغباته المؤذية والوحشية، باختصار، كل شخص يستمتع بطريقته الخاصة، غير أن الفرق يكمن في أن البعض يتمحورون حول ذواتهم، إن تلبية هذه الرغبات بالنسبة إليهم هي الحافز، الجوهر والغاية، في حين أن الآخرين يستدعون العالم بأسره إلى الاعتراف من عطائهم الروحي، وهنا نجد الفرق بين الأرواح السخية والبخيلة، حيث إن الفئة الأولى تستمتع بالعطاء، عكس الفئة الثانية التي تنتشي بالتقتير.

بالنسبة للأنانية المتعارف عليها، ورغم أنها تثير اشمئزازي، فإنني أعترف بأنه مع ذلك، لو كان بمستطاعي أن أبتاعها، فلن أدخر جهداً في سبيل ذلك: أن تكون غبياً، أنانياً وتتمتع بصحة جيدة، ها هي ذي الشروط الثلاثة المطلوبة ليكون المرء سعيداً، إلا أنه في حال افتقارنا للشرط الأول، فسيكون الرهان خاسراً.

ثمة سعادة أخرى مختلفة تماماً، أجل، لقد عشتها، أنت التي جعلتني أشعر بها، وأريتني انعكاساتها الوضاءة في الفضاء، وها أنذا الآن أمد يدي

صوبك لأتلقف هذه السعادة، في حين أنك تهزين رأسك متشككة في أن سعادتنا لا تعدو أن تكون مجرد تخيل وهمي (يا لها من عادة حمقاء! إنني أستعين دوماً بتعبيرات مجازية لا معنى لها!)، ما أرغب في قوله، هو أنه يهيأ لي أن قلبك مثقل بالحزن، حزن عميق نجهل مصدره، وفي الوقت نفسه، نشعر وكأنه ينبع من حقيقة الوجود. سبق وحذرتك أن بؤسي مُعْدٍ، تماماً كالمصاب بالجرب، ملعون ذاك الذي سيلمسه! آه، لذا فإن ما كتبته لي اليوم بائس وموجع، وحملني على تخيل وجهك الحزين وأنت تفكرين بي، أنا سبب حزنك! بالأمس فقط، كنتُ في حالة جيدة، أشعر بالأمان، بالهدوء، مبتهجاً مثل شمس الصيف المغتسلة بزخات مطر مباغت.

إن قفازك بالقرب مني، ويهيأ لي أنني ما زلت أستنشق عبق كتفك وأحس بالحرارة العذبة لذراعك العاري، ها أنذا أقع مجدداً تحت سطوة أفكاري الشبقة، إن قلبي يخفق كلما تذكرتك، ورغبتي بك تطوقني، إنني أرغب بك بأكملك، لذا أستحضر ذكراك عساها تشبع إلى حدٍّ ما حاجتي إليك، هذه الحاجة التي ما فتئت تكبر وتصرخ بداخلي، للأسف لستِ هنا، ولكن قد نلتقي يوم الإثنين، أليس كذلك؟ إنني أنتظر رسالة تأكيد من صديقنا النحات جيمس براديه، الذي يحلو لي أن أطلق عليه كما تعلمين لقب «فيدياس»، ولهذا، إذا ما كتب إلي، فإن كل شيء سيحدث على النحو المتفق عليه.

أتدرين فيمَ أفكر؟ في مخدعك حيث تشتغلين، وحيث... (هنا لا أعثر على كلمة مناسبة، نقط الحذف الثلاث هذه تبدو لي أشدّ وقعاً من أكثر الكلمات البليغة المدهشة). إنني أرى شحوب ملامحك الجادة، وأنا أمسكك بين ذراعي، على ضوء قنديلك، آه، إياك أن ينكسر ذاك القنديل،

دعيه يبعث وهجه في كل الأماسي، وكذا في أيامك الاحتفالية، حينما ستشرعين في كتابة مشروع إبداعي ضخم أو ستضعين نقطة نهايته. تعبر ذهني فكرة الآن: لدي قارورة تحتوي على مياه نهر «الميسيسيبي»، لقد جلبها إلى أبي قبطان يعرفه، وقدمها له كهدية ثمينة، أرغب الآن في أن أمنحك بعضاً منها، لتغسلي يديك بها كلما أنجزت شيئاً مذهلاً، أو قد أسكب القليل من هذه المياه السحرية على صدرك، لأباركك، كنوع من التعميد، أجل، أود أن تصيري معمدة بحبّي.. أعتقد أنني أهذي، نسيت ما الذي كنت أقوله قبل أن أتذكر هذه القارورة، أظن أنني تحدثت عن قنديلك، أجل، إنني أحب منزلك بكل تفاصيله، قنديلك، أثاثك، كل شيء أجده رائعاً، ما عدا ذاك الرسم الزيتي الساحر الذي تعلقينه على أحد جدران مخدعك.. تعبر ذهني أيضاً السيدة الوقورة «كاثرين» وهي تقدم لنا أطباق وجبة العشاء الشهية، وكذا مزحات صديقنا «فيدياس»، أسترجع كل شيء، آلاف التفاصيل التي تتعلق بك، لكن، أتعلمين كيف تحضرين في ذاكرتي دوماً؟ أتذكرك وأنت في ورشة الكتابة الخاصة بك، تقفين أمامي بشموخ، وتنظرين إلي وأنا أحدق فيك. أو أستعيد ذكراك وأنت ساكنة بين ذراعي، ببشرتك الناعمة، المعطرة، التي تجعلني أنتشي، وأنت، قولي لي كيف تتذكرينني؟ وما هي أول صورة أو ذكرى لي تلوح بين عينيك؟.. يا إلهي، إنني عاشق مسكين، أليس كذلك؟ هل تدرين أنني قبلك لم أشعر بشيء مما شعرت به معك؟ (قبل ثلاثة أيام كنتُ منكسراً، وفي الوقت نفسه أحسست أن أعصابي مشدودة وكأنني وتر من أوتار كمان حزين)، صدقيني، لو كنت رجلاً ذا تقدير ذاتي عال، كنت سأستاء من نفسي بلا ريب، لكن أخشى ما أخشاه هو أن تأخذي عني انطباعات شنيعة، وأن تحكمي علي بازدراء

ـ كما قد تفعل نساء أخريات ـ بأني رجل بارد، محطم، منهك، إن هذه الأحكام الفظيعة للغاية كانت تصيبني بالذهول، إلا أنني في قرارة نفسي، مقتنع بأنك ذكية ومختلفة، ولهذا كان لزاماً عليّ أن أحبك كما لم أحب من قبل، فمعك اجتاحتني أحاسيس مغايرة تماماً لما أحسست به مع كل النساء الأخريات، آه يا ملهمتي! أنت التي تسري في أوردتك دماء الآلهة الرومانية، هل ترغبين في أن أصبح وثنياً متعبداً في محرابك؟

سأعترف لك بشيء، مهما حاولتُ الابتهاج بالانحياز إلى الخيال، فإن الأسى ضارب جذوره في أعماقي، وفي روحي يتفشى الضباب، وكأنني استنشقت الهواء الثقيل للضجر مذ صرختي الأولى، أشعر أني أحمل بداخلي سوداوية الغجر الرحل، ورغبتهم الدائمة في النزوح والانتقال، بسبب نفورهم من البشاعة الفطرية للحياة، هذه البشاعة التي تجعلهم يغادرون بلدانهم الأصلية كما لو كانوا يريدون التخلص من حياتهم السابقة، بل ومن أنفسهم. أجد أن كل أولئك الغجر الذين قصدوا إيطاليا ليمضوا بها ما تبقى لهم من عمر كانوا واقعين في حب الشمس، وكان لديهم توق محموم إلى الضياء، زرقة السماء، والوجود الدافئ والصاخب، لقد كانوا يحلمون بأيام سعيدة، ملأى بالحب، تدخل السكينة على قلوبهم، لطالما شعرت تجاه هؤلاء بالتعاطف والحنو، مثلما أشعر بذلك تجاه أسلافنا، أتساءل أحياناً: هل بإمكاني أن أعثر بين جنبات حكاياتهم الصاخبة على قصة مغايرة لقصة حياتي المجهولة، المريحة؟ ألا تتماهى صيحات ابتهاج الملك «ألاريك» إبان دخوله إلى روما قبل أربعة عشر قرناً مع الهذيان السري لروح طفل صغير بائس؟ للأسف! لا، فأنا لست رجلاً من العصور القديمة، ببساطة، إن الرجال القدامى لم

يكونوا يعانون من مرض عصبي مثلي، وأنت أيضاً لست بامرأة إغريقية، أو لاتينية، إنك أبعد ما تكونين عن ذلك، إن الرومنطيقية تبدو متجاوزة هكذا، مع أنها وُجدت لتجعل الإنسانية والحياة أكثر شمولية، وكذا أكثر فساداً وإيلاماً، لكن من سخرية القدر أن قلوبنا لا تتسع وتكبر إلا بعدما تمزقها الشفرات الحادة للحياة.

إنك تقولين لي بنبرة ساخرة تعليقاً على المقال الذي نُشر في جريدة «لو كونستيتوسيونيل»: إنني لا أولي اهتماماً كبيراً للوطنية، الشجاعة، والعطاء اللامشروط، آه، لا، أود أن أوضح لك أنني أحب وأتعاطف مع المهزومين، وفي الوقت نفسه لا أخفي إعجابي بالمنتصرين، أما فيما يتعلق بفكرة «الموطن»، أفهم أنك تقصدين تلك القطعة من الأرض التي نرسمها على الخريطة، ونفصل حدودها عن البلدان المجاورة بخطوط حمراء أو زرقاء، لكن لا، في نظري الخاص، فإن الموطن الحقيقي هو البلد الذي أحبه، البلد الذي أحلم به وأنشده، وحيث أشعر بالانتماء وبأنني في أفضل أحوالي. بوسعي القول إنني أعتبر نفسي صينياً بقدر ما أنا فرنسي، ولا أخفيك أني لست مسروراً أبداً بالانتصارات التي حققناها على العرب، لأن هزيمتهم تسبّب لي الحزن، كوني أحب الشعوب العربية القوية، المتشبثة بالحياة والمحبة لها، إنها بمثابة التجسيد الأخير للمجتمعات البدائية، عكس حضارتنا التي لا تقوم بشيء عدا نشر الغضب..

«أين أنا الآن؟ وأين سأمضي؟» كما كان يقول شاعر تراجيدي عرفته حينما كان طالباً في مدرسة «ليل»، بلا تردد، سأختار رحلة صوب الشرق، أقسم لك أنني سأفعل!

إلى اللقاء سلطانتي، فقط لو كان بإمكاني أن أهديك الآن مبخرة شرقية

مرصعة بالعقيق الأحمر لتعطري بها فراشك قبل أن تخلدي إلى النوم، عوضاً عن ذلك، فإنني أهديك كل ما في قلبي من حب، وأرسل لك الكثير من القبلات الطويلة، اللانهائية.

* * *

السبت (8 أغسطس 1846)

أنا محطم، مشوش، مثلما يحدث للمرء إثر حفلة عربدة، كما أنني أشعر بالسأم حدّ الموت، وفي قلبي ثمة فراغ مهول. أنا الذي كنت من قبل هادئاً جداً وسعيداً بالسكون الذي يطبع حياتي، وأشتغل صباحاً ومساءً بشكل متواصل وبعزيمة مشحوذة، لكنني حالياً ما عدت قادراً على القراءة، التفكير، أو الكتابة، إن حبك غمرني بالحزن، كوني لاحظتُ أنك تعانين، لذا أتوقع أني سأتسبّب لك في معاناة أكبر، كم أتمنى لو أنني لم أعرفك قط، من أجل مصلحتنا نحن الاثنين، ومع ذلك، فإن ذكراك تجتاحني بلا هوادة، ذكراك العذبة الرائعة.. آه! ربما كان من المحبذ أن تتوقف علاقتنا بعد نزهتنا الأولى! وكأنني استشعرت مسبقاً ما سنؤول إليه! إذ في اليوم الموالي لنزهتنا، لم أوافِك في موعدنا عند صديقنا فيدياس، لأني كنت أحس بشروعي في الانزلاق في منحدر الحب، لقد رغبت في ردع نفسي، ترى ما الذي دفعني إلى العدول عن ذلك؟ لا يهم! لا بأس!

إن الحياة لم تمنحني جانباً مرحاً، ولذلك، فإنني أكثر الأشخاص الذين يستشعرون بؤس الحياة، أنا لا أؤمن بأي شيء، لا أؤمن حتى بنفسي، وهذا أمر نادر، أنا أمتهن الفن لأنني أجده ممتعاً، لا لأنني أؤمن به وبجمالياته.

إن المقطع الذي تطرقت فيه إلى الوطنية في رسالتك يا صديقتي الصغيرة كان من شأنه أن يضحكني، لو أنني كنت في مزاج رائق. ستعتقدين حتماً

أنني قاس، كم أود أن أكون قاسياً بالفعل، إذ ذاك، فإن كل الذين صادفتهم سيكونون في حال أفضل، وأنا أيضاً، أنا الذي التهمت قلبي قسوة الحياة، تماماً كما تلتهم الخرفان العابرة عشب البراري في الخريف. إنك لم تصدقيني عندما قلت لك إنني رجل هَرِم، وا حسرتاه! أنا هرم حقّاً، إذ إن كل إحساس يلامس روحي يستحيل مريراً، فقط لو تعرفين كل شياطيني الداخلية التي أنهكتني، وكل الأفكار الجنونية التي طافت في ذهني، وكل المشاعر والعواطف التي اختبرتها، حينها، ستدركين أنني لست يافعاً كما تظنين، عكسك أنت، التي لا تزالين طفلة يانعة وطرية، إن براءتك تجعلني أحمر خجلاً، وأنحني أمام عظمة حبك، لا ريب في أنك كنت تستحقين رجلاً أفضل مني، فلتسحقني الصاعقة! ولتسقط كل اللعنات علي إذا ما نسيتك يوماً ما! سألتني إذا ما كنت سأحتقرك لأنك منحت نفسك لي أسرع مما ينبغي، كيف استطعت التفكير في أمر مماثل!؟ أبداً! أبداً! مهما فعلتِ! مهما حدث!

سأكون مخلصاً لك ولابنتك وكل أحبائك ما حييت! إن ما أقوله هنا بمثابة قَسَمٍ، فانقشيه في ذاكرتك! واشهريه في وجهي أنّى شئت، أؤكد لك أنني لا أقسم أو أتعهد أبداً إلا إذا ما كنت متأكداً من قدرتي على الوفاء بذلك!

أجل، أنا أرغب فيك، وأحن إليك، وأحبك أكثر فأكثر، وما عدت قادراً على استحضار أي شيء عدا ذكراك، أراك دوماً في ورشتك الإبداعية، واقفة بشموخ، بملامح وجهك الأخاذة، بفستانك الأزرق الذي يكشف عن كتفيك.الناصعي البياض، وعن ذراعيك..، إن هذه الذكرى تبث القوة في أوردتي، ويخيل إلي أنك هنا، إنني أشتعل، وتسري الرجفة في أوصالي..

مذ تبادلنا الاعتراف بحبنا وأنت تتساءلين لماذا أتحفظ عن قول: «أحبكِ إلى الأبد»، الإجابة هي أنني أتجنب قولها لأنني أستشرف المستقبل، إذ ترتسم بلا توقف أمام عيني لمحات مناقضة لما أراه، هكذا، لم يسبق ورأيت طفلاً دون أن أتخيله يصير شيخاً، ولا مهداً دون أن يتراءى لي القبر، كما أن تأملي لجسد امرأة عارية يجعلني أتصور هيكلها العظمي، ولأنني ألمح التضاد في كل شيء حولي، فإن العروض المبهجة تثير حزني، في حين أن العروض البائسة قلما تؤثر بي. أيضاً، أنا أبكي بداخلي بغزارة كي أتمكن من سكب دموع خارجية، وتؤثر بي قراءة كتاب تراجيدي أكثر مما قد تفعل مأساة واقعية، وعندما كنت أحظى بعائلة، كثيراً ما كنت أتمنى أن أكون وحيداً لأكون حرّاً بشكل أكبر، لأذهب للعيش في الصين أو مع الغجر، لكن الآن، أجدني نادماً على أمنيتي هذه، وأتشبث بظلال عائلتي المتبقية في الصور المعلقة على الجدران.

قد يشعر رجال آخرون بالفخر إذا ما كانوا في مكاني، نظراً للحب الذي تغدقينه علي، هذا الحب الذي سيشبع غرورهم، ويجعل أناهم الذكورية تنضح بالزهو، زهو سيمتد إلى أعمق خبايا أرواحهم، لكنني عكسهم تماماً، لأن حبّك يُغرق قلبي في يَمِّ الحزن، سيما بعد انصرام لحظاتنا المحمومة، لأنني أقول في نفسي: إنها تحبني، وأنا أحبها كذلك ولكن ليس بالقدر الكافي، وربما لو أنها لم تعرفني قط، كنت سأجنبها كل الدموع التي تسببت في ذرفها لها، سامحيني لأني تسببت في بكائك، فلتسامحيني باسم لحظات النشوة اللانهائية التي منحتني إياها، إن حدسي ينذرني بأني سأكون مصدر شقاء عظيم لك، وأكثر ما أخشاه أن يتم العثور على رسائلي هذه، وأن يعلم الجميع بقصتنا.

مريض أنا بك!

هل تظنين أنك ستحبينني إلى الأبد يا طفلتي؟ إلى الأبد! يا له من ادعاء نتفوه به! لقد سبق أن وقعتِ في الحب من قبل، أليس كذلك؟ مثلي تماماً. فلتتذكري إذن أنك لا بدّ وأن وعدت حبيبك السابق بأن تحبيه إلى الأبد! يبدو أنني أكبح حلمك بالأبدية، وأسبّب لك الحزن بكلامي هذا، تعرفين أني قد أقول كلاماً قاسياً، رغم أني أغمرك بلمساتي الحانية، لا يهم، إنني أفضل أن أثير قلقك الآن، على أن أقوم بتضخيم السعادة التي تتولد عن حبنا، كما يفعل الرجال الآخرون جميعهم، عساك لا تتوجعين أكثر في حالة ما إذا فقدنا شغفنا ذات يوم.. من يدري؟ ربما سيأتي يوم تشكرينني فيه لأنني امتلكت الشجاعة لأوجّه لك هذه الكلمات القاسية.

آه، فقط لو أنني أقيم في باريس، فقط لو كان بوسعي أن أمضي كل أيام حياتي بالقرب منك، حينها، كنت لأطلق العنان لنفسي دون أن أخشى العواقب! وحينها أيضاً، كنت سأشبع قلبي، جسدي وفكري من معين حبك، وما كان الملل ليتسرب إلى روحي ولو للحظة واحدة! ولكننا الآن بعيدان عن بعضنا البعض، ولا نستطيع أن نلتقي إلا لِمَاماً، وهذا رهيب! يا له من قدر! وما عساني فاعل لأغيّره؟ أتدرين، أنا لا أدرك كيف فكرتُ في إنهاء علاقتنا، لكن هذا ما أنا عليه، وهذه هي طبيعتي المثيرة للشفقة! المفارقة أني سأموت إذا توقفتِ عن حبي، ومع ذلك طلبت منك أن تنسيني! إن حماقتي تسبّب لي الغثيان! ولا أدري لماذا، حيثما وليتُ وجهي، لا أرى سوى الشقاء يحيط بي، لكم رغبت أن أمر في حياتك كنبع بارد لأنعش ضفافك العطشى، لا كسيل جارف يخلف المزيد من الدمار في حياتك، لا ريب في أنه في الحالة الأولى، كانت ذكراي ستجعل القشعريرة تسري

في إهابك وتدخل السرور إلى قلبك. أرجوك، لا تلقي علي لعناتك أبداً! وليشفع لي حبي لك الذي يكبر يوماً بعد يوم، تأكدي من أنني سأباركك دوماً، وأن صورتك الحنونة وأشعارك الندية ستظل موشومة في ذهني، تماماً كما كان الضباب الفضي يلف سماء ليلة أمس بأبخرته الشفافة..

سأزورك هذا الشهر، وسأقضي معك يوماً كاملاً! سأكون مِلكك بعد أسبوعين أو أقل.. أنتظر فقط رسالة من فيدياس لأهرع إليك، اتفقنا؟ بالمناسبة، هل انطفأت نار غضب فيدياس الطيب؟ أتراه فهم معنى الهدية التي أرسلتُها إليه؟ من فضلك احرصي على أن تؤكدي له أن هدف هذه الهدية هو إبهاجه وبعثه على الحلم، وكذا مكافأته قليلاً على السعادة التي أهداها إلينا.

أنت تودين أن أرسل لك أحد نصوصي، لا، لن أفعل حتماً، لأنك تجدين كل ما أخطه رائعاً للغاية، لقد منحتني الكثير، لذا لستِ بحاجة إلى غمري بثنائك على نصوصي الأدبية، لأنك ستتسبّبين في أن أصبح مختالاً! ثم إن لا شيء مما أكتبه صالح للقراءة، كوني أملأ أوراقي بالتشطيبات والإشارات المبهمة، دون أن أحرص على تنقيحها، لذا ستتوهين بين كل ذلك! أجيبيني: ألا تخشين أن يفسد أسلوبك جراء مواعدتي؟ إنك ترغبين أيضاً في أن أنشر شيئاً من كتاباتي عمّا قريب، أعترف بأن فكرتك هذه تثير حماسي، وإذا ما استمر إصرارك، سينتهي بي المطاف بأن أصدق أني كاتب موهوب، وسأصاب بالغرور (فلتحفظني السماء من هذه الخطيئة!). فيما مضى، كانت الريشة تنساب فوق أوراقي بسرعة، إنها تنساب الآن أيضاً، غير أنها صارت تمزق الأوراق! لا أستطيع أن أركب جملة واحدة! إنني أغير ريشتي بلا توقف كوني عاجزاً عن التعبير عمّا أود قوله فعلاً.

ما رأيك في أن تأتي إلى «روان» برفقة فيدياس، لتزوراني ويتجدد لقاؤنا؟ ولتري بنفسك المكان الذي أعيش فيه، أنا واثق من أن معاينتك لمنزلي وأثاثه ستكون أفضل بكثير من كل الوصف الذي سأكتبه لك، هكذا، حينما ستعودين إلى باريس، ستتذكرين سجادتي ومخدعي، تماماً كما أتذكر أنا دوماً قنديلك وضياءه المحتضر، المتموج، المنعكس على السقف، آه سأتذكر إلى الأبد ابتسامتك النشوى وأنت تفتحين لي باب غرفتك لنودع بعضنا، ليلتها، نزلت السلم الغارق في العتمة على أطراف أصابعي، تماماً كما لو كنت أحد اللصوص، أوَ لستُ شبيههم إلى حدٍّ ما، الفرق بيننا يكمن في أنني اختلست لحظات من المتعة، لذا كنت مبتهجاً جداً، مثلما يبتهج هؤلاء اللصوص وهم يهمون بالفرار محملين بغنائمهم.

أدين لك بمكاشفة صريحة عن نفسي، كي أرد على إحدى صفحات رسالتك التي تبرزين فيها التصورات الخاطئة التي كونتها عني، لأنه سيكون من الجُبن أن أترك هذه الأوهام تعمر طويلاً في ذهنك (والجبن أيّاً كانت تمظهراته من النقائص التي تثير اشمئزازي).

في أعماقي، أعتقد أنني أتماهى مع فنان كوميدي، إذ منذ طفولتي وصباي كنت أحمل بداخلي توقاً لا محدوداً إلى خشبة المسرح والعروض، ربما كنت سأصير ممثلاً شهيراً، لو أنني ولدتُ فقيراً. إلى يومنا هذا، أكثر ما يلفت انتباهي هو الشكل، ولا شيء عداه، شرط أن يكون جميلاً، إن النساء ذوات القلب المتقد والفكر الاستثنائي لا يفهمن عبادة الجمال، بمعزل عن الأحاسيس التي يوقظها، كونهن يحتجن دوماً إلى سبب وهدف، إن الحلي الفضية المبهرجة تثير إعجابي بقدر ما يفعل الذهب، كما أجد أن الشعر المليء بالزخارف اللفظية أكثر جمالية، بفضل

الشجن الذي يثيره في نفسي، بالنسبة إلي، العالم يُختزل في الأبيات الشعرية الرائعة، الجمل المتناغمة، الغنائية، المركبة بطريقة جيدة، وأيضاً، غروب الشمس المدهش، الليالي المقمرة، اللوحات الملونة، الرخاميات العتيقة، والتماثيل النصفية.. عدا ذلك، لا يهمني أي شيء. كنت أفضل أن أكون الكوميدي «تالما» على أن أصبح مثل الكاتب والسياسي «ميرابو»، لأن تالما عاش في محيط ذي جمالية خالصة، أيضاً، لا أخفيك أن الطيور المحبوسة في الأقفاص تثير شفقتي تماماً كالشعوب المستعبدة، ولا أفهم شيئاً من السياسة برمتها سوى الثورة، ولأنني مؤمن بالقضاء والقدر كما الرجال الأتراك، أعتقد بأن كل ما بوسعنا فعله أو عدم فعله من أجل تقدم الإنسانية سيان،

فبالنسبة للتقدم، لدي إدراك بسيط للأفكار غير الواضحة المتعلقة به، لذا، فإن الخطابات التي تتغنّى به تشعرني برغبة لا تقاوم في النوم. أكره مفهوم الاستبداد الحديث لأنني أجده موسوماً بالغباء، بالضعف والخجل، ولكنني في أعماقي أعتنق مفهوم الاستبداد القديم، لأني أفكر في أنه كان أجمل تجَلٍّ للإنسان. قبل كل شيء، أنا رجل عاشق للخيال الجامح، للنزوات، والتناقضات، ولطالما فكرت بجدية قصوى (رجاء لا تضحكي، لأن هذه الذكرى رافقتني في أجمل فترات حياتي)، في أن ألجأ إلى مدينة «سميرنا» العتيقة، بعدما أتخلى عن حياتي السابقة بأكملها، فكرت: سأذهب للعيش بعيداً عن هنا، وستنقطع أخباري عن الجميع!

أود أن أوضح لك أيضاً أن الحب الجسدي الذي هو عادة ما يهم الرجال، يشكل أهمية ثانوية بالنسبة إلي، ففي الواقع، كنت دوماً أفصله عن الحب الروحي، أنت المرأة الوحيدة التي أحببتها روحاً وجسداً، إذ

قبلك كنت أفرغ الرغبات التي تولدها بداخلي بعض النساء في أجساد نساء أخريات، لقد جعلتني أغيّر هذا النظام الذي اعتدت عليه، وربما كنت أفصل أحاسيسي عن رغباتي الجسدية لأن طبيعتي كرجل غير كامل تخشى الاكتمال..

مرة، عندما كنت أبلغ من العمر أربع عشرة سنة أحببت فتاة، وظللت أحبها إلى أن بلغتُ العشرين، دون أن أبوح لها بحبي، ودون أن ألمسها، وبعدها أمضيت ثلاث سنوات وأنا منعدم الرغبة، بل خلتُ أنني سأموت وأنا بتول، وكنت أشكر السماء لذلك، إذ لم أكن أرغب في أن يتحكم بي جسدي أو قلبي. إنك الوحيدة التي تجرأتُ على محاولة إثارة إعجابها، ومن الوارد أن تكوني المرأة الوحيدة التي أعجبت بي، وأنا ممتن لك، ممتن فعلاً! ولكن هل ستتفهمينني دوماً؟ وهل ستتحملين ثقل ضجري؟ هوسي، نزواتي، كآبتي وردود أفعالي المندفعة؟ أنت تطلبين مني مثلاً أن أكتب لك رسالة بشكل يومي، غير أن رغبتك في أن تحظي برسالة مني كل صباح قد تجعلني أتوقف عن الكتابة إليك! دعيني أحبك بطريقتي الخاصة، بتفردي كما تقولين، لا تجبريني على أي شيء، وأنا أعدك بأني سأفعل كل ما بوسعي من أجلك، افهميني دون أن تتهميني، وتأكدي من أنني لو كنت أحكم عليك بأنك امرأة ساذجة وبلهاء كالنساء الأخريات، إذ ذاك كنت سأغدق عليك الوعود، الكلمات الخداعة والعهود، ولن يكلفني هذا شيئاً، إلا أنني أريد أن أتصرف معك وفق ما يمليه علي قلبي الصادق، النابض بحبك.

ها هو ذا المساء قادم، لقد أمضيت فترة ما بعد الظهر كلها في الكتابة إليك، حينما كنت في الثامنة عشرة من عمري، بعد عودتي من الجنوب الفرنسي، كتبت طيلة ستة أشهر رسائل مماثلة إلى امرأة لم أكن أحبها، كنت أفعل

ذلك لأجبر نفسي على حبها، وكذا كمحاولة مني للعثور على أسلوب جاد وخاص بي، لكن في حالتك، الأمر مختلف تماماً، لأن رسائلي إليك تتماثل وتتوافق مع حقيقة مشاعري نحوك، آه، ما زال هناك شيء أود أن أخبرك به: هناك في باريس رجل مخلص لي حدّ الموت، ويضع نفسه تحت إشارتي، إنه رجل نشيط، شجاع، ذكي وذو طبيعة عظيمة وبطولية، لذا إذا ما احتجته، أؤكد لك أنك بوسعك الاعتماد عليه تماماً كما تعتمدين علي.

أنتظر أبياتك الشعرية غداً، كما أتمنى أن أتوصل بكتابيك في غضون بضعة أيام، إلى اللقاء، فكري بي، إنني ألثم يدك، هل تعلمين أنني أعكف على قراءة أعمالك الإبداعية كل مساء، وأبحث فيها عن آثارك التي أجدها في بعض الأحايين متناثرة بين السطور..

إلى اللقاء، إلى اللقاء، أضع رأسي فوق صدرك وأتأملك من أخمص قدميك إلى رأسك، كما لو كنت منحوتة مقدسة.

الساعة الحادية عشرة مساء:

إلى اللقاء، لا بدّ وأن أختم رسالتي، إنها الساعة التي يستسلم فيها الجميع إلى النوم، لكنني أنا، المسربل بالوحدة، أفتح الدرج الذي يحتوي على ذكرياتك الغالية/ الكنز الذي أهديتني إياه، لأتأمل خفيك، منديلك، خصلة شعرك، صورتك، وأعيد قراءة رسائلك، وأستنشق رائحة المسك التي تضمخها، فقط لو تعلمين ما الذي أحس به الآن!.. ففي الليل، يتفتح قلبي بعدما تتسرب إلى شغافه قطرات ندى المحبة الخالصة!

تقبلي مني ألف ألف قبلة، على كل قطعة من جسدك النضر..

* * *

منتصف الليل، ليلة السبت/الأحد، (9 أغسطس 1846)

السماء صافية، والقمر ساطع، أسمع غناء مجموعة من البحارة وهم يرفعون المرساة ليبحروا مع التيار البحري القادم، ما من سحب، ولا رياح، والنهر يلوح تارة أبيض تحت ضوء القمر، وتارة أخرى أسود في ظلال الليل، الفراشات تلهو وتطوف حول شموعي، ورائحة الليل تتسلل إلي من النوافذ المفتوحة، وأنت، أتراك نائمة؟ أم تطلين من نافذتك؟ وهل تفكرين في هذا الرجل الذي يفكر فيك؟ أم تراك تحلمين؟ ما هي الألوان التي تصبغ أحلامك يا ترى؟ لقد مرت ثمانية أيام على نزهتنا الجميلة في غابة «بولونيا». ومنذ ذلك اليوم، أحس بأني أسقط في هاوية من الفراغ!

بالنسبة لأناس آخرين، فقد مرت تلك السُّويعات الرائعة بنفس الإيقاع الرتيب الذي انقضت على وقعه السويعات التي سبقتها وتلتها، أما بالنسبة إلينا، أنا وأنت، فإن تلك السويعات قد شكلت لحظة مشرقة سيظل انعكاسها ينير قلبينا إلى الأبد، لحظة تنضح بالجمال، الرقة والفرح، أليس كذلك، يا توأم روحي؟ لو أنني أملك ثروة أكبر، كنت سأبتاع تلك العربة التي تنزهنا على متنها، وأركنها جانباً، دون أن أستعملها قط..

أؤكد لك أنني سأعود إليك عما قريب، لأنني أفكر فيك بلا توقف، وأحلم دائماً بوجهك، كتفيك، عنقك العاجي، ابتسامتك، وصوتك المليء

بالشغف، صوتك القوي والعذب في آنٍ واحد، تماماً كصرخة حب، أعتقد أني سبق وأخبرتك بأن صوتك هو أكثر ما أحبه فيك.

هذا الصباح، انتظرت ساعي البريد، وقفت طيلة ساعة أترقب قدومه على الرصيف، لكنه تأخر اليوم عن موعده المعتاد، فقط لو يعلم هذا الغبي، المزهو بياقته الحمراء، كيف تسبب لي في ارتفاع خفقان قلبي! أشكرك على رسالتك الطيبة، ولكن أرجوك، لا تحبيني إلى هذا الحدّ! لأن هذا يجعلني فريسة للألم! دعيني أحبك كما ينبغي! ربما أنت لا تعلمين أن الحب اللامحدود لا يجلب سوى الشقاء للحبيبين! إن هذا الأمر يتماهى مع أسطورة الموت المبكر الذي يخطف أرواح الأطفال الذين نغمرهم باللمسات في طفولتهم الأولى. أتدرين، الحياة ليست عادلة، وكثيراً ما تستحيل السعادة مسخاً يلتهم أرواح الملعونين الباحثين عنها.

في اليومين الماضيين كانت أمي في حالة مريعة، لقد عانت من هلوسات بشعة، ولهذا أمضيت كل وقتي إلى جانبها، أنت لا تعرفين الحمل الثقيل واليأس الذي ترزح تحته أمي، فلتتذكري هذا السطر جيداً: إذا ما فكرتِ في أنك أتعس امرأة على وجه الأرض، اعلمي أنه ثمة امرأة تعاستها تفوق كل التعاسة التي قد نشعر بها، تعاسة تفوق بدرجات الموت أو الجنون، هذه المرأة هي أمي!

قبل أن أتعرف عليك، كنت هادئاً، أو بالأحرى فلنقل إنني صرت هادئاً، وكنت أوشك على دخول مرحلة من اليقظة الروحية، فكرت في أن فترة صباي قد انقضت، بعدما عانيت لعامين من المرض العصبي الذي ألم بي، هذا المرض الذي أعتقد أنه كان نتيجة منطقية لحدث قديم، تراجيدي، مررت به وخلف آثاره السيئة على عقلي وذاكرتي، ثم تحسنت فيما بعد،

وتمكنت من رؤية الأحداث بوضوح أكبر، وكذا استطعت النفاذ إلى أعماقي، وإنه لشيء نادر! عدت إلى رشدي، وأخيراً فهمت ذاتي، وقمت بترتيب داخلي، وأحسست بأنني لم يسبق أن عرفت فترة أكثر هدوءاً في حياتي بأكملها كهذه الفترة، بينما كان جميع من حولي يحسبون أنني وصلت إلى مرحلة تستدعي رثاءهم لي! إلى أن قدمت أنت لتقلبي حياتي رأساً على عقب، وتحركي سكونها، بل جعلت رواسب رغباتي الراكدة تطفو على سطح روحي، ليختلج قلبي، وكأنك عاصفة تسبّبت في مدّ عال بعد مرورها فوق محيط هادئ! لا شك في أن حبي لك هو ما شجعني على هذا البوح.. فانسيني إن استطعت، وانزعي روحك عساك تنجحين في محو الآثار التي خلفتُها في ثناياها، لكن إياك أن تغضبي مني مهما حدث! فأنا مجرد أحمق، وربما كان قلبي مصاباً بقصور عاطفي!

إن هوسي السيئ بالتحليل ينهكني، إنني أشك في كل شيء، بل أشك في شكي أيضاً! أنت اعتقدت أنني شاب في حين أن روحي هرمة، أعترف بأنني لطالما استمتعت برفقة العجائز، وكنت أشعر بالغرابة دوماً وأنا ألمح بريق الحماس الذي يشعل أعينهم المنطفئة، في حين أنهم كانوا لا يصدقون كيف أتماهى معهم رغم صغر سني، لكنني أظن ببساطة أنه بداخلي إنسان متناقض، ومزدوج، لذا إذا ما انتزعت مني حماستي، خيالي الجامح وانفعالاتي، فلن يتبقى الكثير مني، ربما لم أخلق لأعرف معنى المتعة، إنني لا أنفك أردد في نفسي أنني سأكون مصدر شقائك، وأنه بدوني، ما كانت حياتك لتعرف أية اضطرابات، وأنه سيأتي يوم نفترق فيه (وهذا يثير استيائي مسبقاً)، وحينها، يتصاعد الغثيان إلى شفتي، الغثيان الذي تسببه لي الحياة، كما أشعر بالتقزز من نفسي، وبالشفقة تجاهك!

بالأمس، وأنا أهمّ بختم رسالتي إليك، طافت ذكراك في ذهني، ذكرى تشبه إلى حدٍّ كبير شعلة نارية أدخلت الدفء إلى قلبي، ثم تساءلت: ترى إلى متى ستستمر قصتنا؟ عاماً، عامين، عشرة أعوام؟ لا يهم! لأن كل ما نتمكن من قياسه يمر في غفلة منا، وكل ما نحرص على عدّه ينتهي يوماً ما!

ما من شيء في هذا الكون إلا مآله هو النهاية، عدا السماء بنجومها الخالدة، والبحر بقطراته اللامنتهية كالدموع التي تسكبها القلوب الملتاعة، هذه القلوب التي أجدها أكثر شساعة من الأبدية، لأن بوسعها أن تستوعب كل مآسي الإنسانية..

إنك تحدثينني عن اشتغالك الإبداعي، أجل، اشتغلي، وأحبي الفن، إن الفن هو أصدق كذبة على الإطلاق، فاحرصي على أن تحبيه حباً استثنائياً، متقداً، ومخلصاً، وحده هذا الحب لن يخذلك، إذ إن مفهوم الفن مفهوم سامٍ وخالد. لم يعد في زمننا وجود لأمثال أولئك الفنانين القدامى، الذين كانَ فكرهم وحياتهم بمثابة أداة مطواعة ومكرسة لخدمة الذوق الجمالي الرفيع، لذا اكتفوا بالفن عن الحياة وعن العالم بأسره، دون أن يعرف أحد أي شيء عن آلامهم، وفي كل ليلة، كانوا يخلدون إلى النوم وهم مسربلون بالحزن، لأنهم كانوا يتأملون حيوات البشر بذهول وتعجب، هم الذين لم يعيشوا أبداً إلا من خلال أعمالهم الفنية..

ها أنت تطلقين علي الأحكام تماماً كالنساء الأخريات، إلا أنني لا أتذمر من هذا الأمر، لأنك من فرط محبتك لي تخطئين في تقديري أكثر مما أستحق، فأنت تجدينني موهوباً، ذا فكر مميز وأسلوب رائع، أنا؟! أنا؟! سبق أن قلت لك إنك ستجعلينني مغروراً هكذا، أنا الذي لا تسمح لي أخلاقي بأن أسقط في فخ الغرور! لاحظي كيف تأثرتِ بحبنا

وأضعت قدرتك على التمييز والنقد، لأصير في نظرك رجلاً عظيماً عكس ما أنا عليه فعلاً، في الواقع، إن مصدر فخري هو حبك لي، وأعترف بأنني لا أكاد أصدق أن امرأة مثلك تحبني، ولهذا، كي أجعلك بدورك فخورة بي، أرغب في أن أكتب نصوصاً جيدة وعظيمة، نصوصاً تجعل الدمع يفيض من عينيك بسبب إعجابك الكبير بها! ربما أؤلف مسرحية ذات يوم، وأدعوك لتحضري إليها، لتسمعي التصفيقات التي سأحظى بها من الجمهور، ولكن، ألن تتعبي أبداً من محاولاتك المستمرة لحثي على الارتقاء إلى مستواك الإبداعي العالي؟ عندما كنت طفلاً، حلمت بالمجد تماماً كما يحلم الآخرون، غير أن المنطق السليم جعلني أؤجل تحقيق هذا الحلم المنغرس في أعماقي، ثم إنه هناك إشكالية أخرى: قد لا أتمكن أبداً من مشاركة سطر واحد من كتاباتي مع الجمهور، أو قد تلزمني عشر سنوات على الأقل كي أقدم على ذلك.

إنني لا أعلم كيف انجرفت وقرأت على مسامعك أحد نصوصي، من الوارد أنني ضعفت أمام رغبتي في الحصول على تقديرك، مع أنني كنت واثقاً من أني سأنجح في إثارة إعجابك، يا له من تصرف صبياني من طرفي! راقني اقتراحك اللطيف بأن ننشر كتاباً مشتركاً أنا وأنت، تأثرت بالفعل، ولكنني لا أريد نشر أي شيء، إنه قرار اتخذته، وعهد قطعته على نفسي منذ فترة طويلة، والآن أنا أكتب بلا مبالاة مطلقة، ودون دافع خفي، أو قلق حول مآل كتاباتي.. حالياً، خيالي خامد، وحماسي فاتر، أما الجمل التي أكتبها، فإنها تصيبني شخصياً بالسأم، والشيء الوحيد الذي يجعلني أحتفظ بما أكتبه هو رغبتي في إحاطة نفسي بالذكريات، مثلما لا أبيع ثيابي القديمة وأحتفظ بها، وبين الفينة والأخرى، أذهب لإلقاء نظرة عليها في

العلية حيث أخبئها، لأسترجع الفترة التي كنت أرتدي فيها هذه الثياب حينما كانت جديدة، وأتذكر كل ما قمت به آنذاك..

بالمناسبة، سأذهب الآن لألقي نظرة على خفيك، آه، سأحتفظ بهما أيضاً إلى الأبد! أعتقد أنني أعشقهما بقدر عشقي لك، إن الرجفة تسري في يدي في كل مرة ألمسهما فيها، ويهيأ إلي أن رائحتك العطرة الملتصقة بهما تتسرب إلى روحي..

إلى اللقاء يا حياتي، إلى اللقاء يا حبيبتي، لا زلت في انتظار رسالة فيدياس لآتي لزيارتك، ربما لن تتاح لنا الفرصة لنلتقي طيلة فصل الشتاء القادم، لذا سأزور باريس وأمكث بها ثلاثة أسابيع على الأقل..

إلى اللقاء، أرسل إليك ألف قبلة..

* * *

الأحد (9 أغسطس 1846)، العاشرة صباحاً

إن جنونك يجرفك يا طفلتي، فلتهدئي، إنك تؤذين نفسك بانزعاجك، وبالسخط الذي تحملينه بداخلك تجاه الحياة، سبق أن قلت لك إنني عقلاني أكثر منك. ألا تعتقدين أنني أعاني مثلك؟ توقفي عن الصراخ رجاء، لأن صرخاتك تمزق قلبي، ما الذي بوسعنا فعله؟ تسألينني إذا ما كان بمستطاعي أن أترك كل شيء خلفي لأستقر في باريس؟ هذا مستحيل! كنت سأحقق رغبتك بلا شك في حالة ما إذا كنت حرّاً، ثم إن الاستقرار بباريس بالقرب منك سيجعلني غير قادر على تنفيذ المشروع الذي أحلم به منذ صباي، والذي سأنفذه حتماً ذات يوم: أن أعيش في «المنفى»، في بلد لا يعرفني أو يحبني فيه أي شخص، وحيث لن ينتفض أحد لدى ذكر اسمي، وحيث لن يذرف أي كان دمعة واحدة بسبب غيابي أو موتي. لقد حظيت طيلة حياتي بالكثير من الحب، وها أنت أيضاً تحبينني إلى قدر كبير، إنني مشبع بالحنان، ومع ذلك ما زلت أرغب في المزيد منه، للأسف! إنك تقولين لي إنني أحتاج إلى قصة حب عادية، لكنني أؤكد لك أن هذا غير صحيح، فكل ما أحتاجه بالفعل هو حبك أنت، لأنني لا أستطيع أن أحلم بحب أكثر اكتمالاً وعذوبة من حبك.

إنها الساعة العاشرة صباحاً، تلقيت للتو رسالتك كما أرسلت إليك رسالتي التي كتبتها ليلة أمس، والآن، ما إن استيقظت حتى شرعت في

كتابة هذه الرسالة لك، مع أنني لا أعلم ما الذي أود قوله لك، إنك تعلمين أنني أفكر فيك طوال الوقت، لكن أرجوك، لا تحزني إذا لم تتلقي رسائلي كل يوم، ولتتأكدي من أن ذلك سيكون خارجاً عن إرادتي، لأنني ربما أفكر فيك أكثر في الأيام التي لا أكتب لك أي شيء فيها.

عزيزتي لويز، أرى أنك تخشين أن أكون مريضاً، اطمئني، لأن أمثالي مهما أصابهم المرض فإنهم لا يموتون، لقد أصبت بشتّى الأمراض وتعرضت لحوادث مختلفة وأنا أمتطي أحصنة، أو انقلبت العربات التي كنت أستقلها، وفي كل مرة كنت لا أصاب ولو بخدش واحد، بينما كانت الأحصنة تلفظ أنفاسها، أو تتعرض العربات لأضرار هائلة، أنا متأكد من أن قدري أن أعمر طويلاً، إلى أن أعاين موت كل من حولي، وكذا موت كل شيء بداخلي، لقد سبق وأقمت ألف جنازة رمزية في قلبي، في كل مرة تخلى فيها عني أو خذلني أحد أصدقائي، لأسباب متنوعة، حيث إن منهم من تزوج، ومن غادر البلاد، ومن تغير ببساطة، إلى درجة أننا نكاد لا نتعرف على بعضنا البعض، ولا نجد شيئاً لنقوله أو نتحدث حوله..

ترى ما سرُّ الانجذاب الذي جردني من مقاومتي ودفعني صوبك؟ رغم أنني لمحت لوهلة هاوية الفقد وعلمت مسبقاً أنها قد تتسبب في هلاكي، لكنني بعدها لم أتمالك نفسي وتركت مشاعري تجرفني، إذ كيف لي ألا أحبك، وأنت امرأة رقيقة جداً، طيبة، سامية، محبة وجميلة للغاية! ما زلت أذكر صوتك وأنت تحدثينني في ذاك المساء الذي أضاءت سماءه الشهب، ذاك المساء الذي شعرت فيه باستنارة قوية تغمر روحي، لذا أعتبره الافتتاح المتوهج لقصة حبنا.

نسيت أن أقول لك إنني أجد منزلك شبيهاً بمنزل أقمت فيه بباريس لمدة

عامين، كان رقم ذلك المنزل 19، ويقع في الشارع الشرقي، إذا ما مررت من هناك، فالقي نظرة عليه، إنه مثل منزلك تماماً، يطل على باريس بأكملها، هناك في الأماسي الصيفية، كنت أتأمل النجوم، أما في فصل الشتاء، فإنني كنت أراقب الضباب المضيء الذي يغطي منازل هذه المدينة الكبرى، كما أنني كنت أرى عبر نوافذ هذا البيت الحدائق، الأسطح، والضفاف المجاورة، تماماً كالمنظر الذي يشرف عليه منزلك. لذا، حينما دخلت إلى منزلك، هيئ لي أنني سافرت في الزمن وعدت إلى عام 1943، عندما كنت أقيم بباريس، أستنشق هواء الضجر المتسلل عبر نافذتي وأحس بالموت يسري في روحي، ذات غسق جميل وحزين في آن واحد، آه، فقط لو أنني كنت أعرفك وقتئذ! لماذا لم نلتق حينها؟ لقد كنت حرّاً، وحيداً، أعيش بعيداً عن عائلتي، كما لم تكن لدي عشيقة، في الواقع لم يسبق أن اتخذت عشيقة أبداً! لا بدّ من أنك ستظنين أنني أكذب عليك، إلا أنني أؤكد لك أني لم أكن صريحاً إلى هذا الحدّ من قبل، وسأوضح لك لماذا..

إن غرابة الحب كانت تمنعني من الاستسلام له، أعترف بأنني كنت أحياناً أرغب في أن أثير إعجاب بعض النساء، غير أن تخيلي للدور الغريب أو السخيف الذي قد يتحتم علي أن أتقمصه حينها كان يجعلني أدخل في نوبة من الضحك تثنيني عن ذلك، حيث إن رغبتي في الوقوع في الحب كانت تتلاشى تحت تأثير السخرية الذاتية المشوبة بالمرارة، معك أنت فقط لم أسخر من نفسي، لكنني عندما ألاحظ أنك تأخذين حبنا على محمل الجدّ، وأراك شغوفة بالكامل بي، تنتابني الرغبة في أن أصيح: «لا، لا، أنت مخطئة حتماً، فخذي حذرك من الحب!».

لقد حبتك السماء بالجمال، الذكاء والإخلاص، لذا أتمنى لو كنت

شخصاً مختلفاً كي أكون جديراً بك، فقط لو أن قلبي كان أشدّ قوة! آه، اقلعي عن محاولتك بعث قلبي، لأنك هكذا ستتسببين بإحتراقي بنيران حبك. ستعتقدين حتماً أنني أناني، أو خائف منك، أجل، أعترف بأن حبك يبث الذعر في أوصالي، ببساطة لأنني أشعر أن هذا الحب يقتات على روحينا، سيما روحك أنت، أنت التي تتماهين مع أسطورة «أوجولين» الذي كان يلتهم لحمه ليطفئ جوعه.

إذا ما كتبت يوماً مذكراتي، فإنني واثق من أن أفضل ما سيرد فيها هو حديثي عنك، أنت التي ستحتلين بين سطور هذه المذكرات مكاناً مميزاً يليق بك، كونك اخترقت جداري العازل، وجعلتني أعرف المعنى الحقيقي للحب، أتعلمين، كثيراً ما يهيأ لي أنني أسمع حفيف ثوبك خلفي، حينها، تسري القشعريرة في جسدي وأستدير لأكتشف أن ذلك الصوت هو في الواقع صوت باب غرفتي التي يعبث بها الريح، وكلما أغمضت عيني، أتخيل جبينك ناصع البياض، هل تعرفين أن جبينك جميل للغاية؟ جميل إلى درجة أنه أسمى من أن يتم تقبيله..

أخبريني: هل ستزورين فيدياس؟ إنني أنتظر منه رسالة ليمنحني ذريعة كي أغادر «روان» ولو ليوم واحد، إنني أخطط أيضاً للذهاب، بحلول شهر سبتمبر، إلى مدينة «مانت» أو «فيرنون»، وبعدها، سنفكر في أمكنة أخرى لنلتقي فيها أنا وأنت، ولكنني أتساءل: ما جدوى اعتيادنا على رؤية بعضنا البعض، وعلى المضي قُدماً في قصة حبنا، ولمَ يتحتم علينا أن نرفل في أي تَرف الحب والحنان إذا ما كان مقدراً لنا أن نحيا بعدها في ظل التعاسة؟ ما الجدوى من كل هذا أخبريني! ولكن، هل بمستطاعنا أن نغيّر قدرنا؟!

إلى اللقاء أيتها الروح الغالية، لقد نزلت للتوّ إلى حديقة منزلي، وقطفت

لك وردة نضرة مثلك، إنها أول وردة سأرسلها إليك بعدما أطبع عليها قبلة، فاستنشقي عبقها والثميها بدورك!

إلى اللقاء، تقبلي محبتي وحناني اللامنتهيين..

* * *

الثلاثاء (11 أغسطس 1846)، بعد الظهر

إن حبك قادر على بعث قلب شخص ميت، فكيف لي ألا أحبك؟ كما أنك تملكين جاذبية مغناطيسية تمنحك القدرة على تليين الصخر بصوتك العذب. إن رسائلك تجعل الرعشة تسري في أضلعي، لذا، لا تخشي أن أنساك يوماً! فأنت تعلمين أنه من الصعب نسيان امرأة عاطفية، مؤثرة، وذات رؤى عميقة مثلك، إنني ألوم نفسي كوني تسبّبت لك في الحزن، انسي كل ما قلته لك في رسالة يوم الأحد، تلك الرسالة التي خاطبت فيها عقلك، لاعتقادي أنك ستفهمينني بتجرد مطلق ودون الاحتكام إلى قلبك، إلا أنك خمنت أشياء لم أقصدها، وقمت بتضخيم كل ما قلته لك، ربما اعتقدت أنني رجل وضيع ومحتال، لذا تنعتينني بالمادي والمتشكك، والرب يشهد على أنني لست كما تصفينني!

إنك تحدثينني أيضاً عن ذوقي الأدبي الاستثنائي، وتودين لو أنك استطعت من خلاله تخمين نوعية العشاق التي أنتمي إليها، أؤكد لك أنني أبحث بلا جدوى عن المعنى الذي قصدته بقولك هذا، لكنني لم أتمكن بعد من فهم أي شيء منه! كل ما بوسعي قوله هو أن نيتي صادقة، وأن ما يضفي علي قيمة هو إيماني بوحدة الوجود وكذا ثباتي الذي تسمينه فظاظة جارحة. فلنتوقف عن التحدث حول ما جرى، أعترف بأنني كنت مخطئاً وأحمق، ببساطة، تصرفت معك كما كنت أتصرف منذ زمن مع أقرب الناس

إلي، كنت أكشف لهم ما تخبئه أعماق روحي، لكن لطالما تسببت الأدخنة القاتمة التي كانت تتصاعد منها في اختناقهم، وكم مرة تسببت دونما قصد في انهمار دموع أبي، أبي ذاك الرجل الجدّ الذكي جداً والحساس جداً، لأنه للأسف، مثلك ومثل العديد من الآخرين، لم يكن يفهم شيئاً من لغتي الخاصة، ربما يكمن عجزي في كوني ولدت وأنا أتحدث بلغة خاصة، لا يملك مفاتيحها سواي، لكن مع ذلك، لست تعيساً، ولا أجد أنني إنسان لامبالٍ، وجميع من يعرفونني يجدون أنني ذو طبع مرح، ولا أشتكي أبداً من مآسي الحياة، في الواقع، لا أعتقد أنني بحاجة إلى التعاطف، كوني لا أحسد أحداً ولا أرغب في أي شيء.. أعدك بأنني لن أعذبك أكثر، إذ من الآن فصاعداً سأتعامل معك برقة لا متناهية كما نفعل مع الأطفال الذين نخشى أن نجرحهم، لذا سأحتفظ بأفكاري الشائكة بداخلي.

تقولين إنني أخضع نفسي للتحليل كثيراً، بينما أظن أنني لا أفهم نفسي جيداً، إذ كل يوم أكتشف شيئاً جديداً في شخصيتي، وكأنني أسافر في أعماقي التي تتماهى مع بلاد مجهولة، لم أسبر أغوارها بعد مع أنني زرتها مئة مرة.. أعتقد أنك لا تقدرين صراحتي (إن النساء يرغبن في أن يتم خداعهن، بل إنهن في بعض الأحيان يجبرن الرجال على ذلك، وإذا ما لم نرضخ لرغبتهن فإنهن ساعتها سيلصقن بنا أبشع التهم). فها أنت تقولين الآن إنني لم أكشف لك حقيقتي في البداية، بالعكس، ستدركين أنني كنت واضحاً معك إذا ما أنعشت ذاكرتك، وستتذكرين حتماً أن أول ما قمت به هو كشفي لك عن جراحي، فقط تذكري كل ما قلته لك في عشائنا الأول، يومها علقت مستنكرة: «هكذا إذن! إنك تبرر كل شيء! فبالنسبة إليك ما من وجود لخير أو شرّ مطلق!». لا، لم أكذب عليك أبداً، لقد أحببتك من

النظرة الأولى، ومع ذلك لم أخطط لإثارة إعجابك، وكل ما حدث بيننا كان مقدراً له أن يحدث، فاسخري كما شئت من إيماني بالقدر، بالنسبة إلي، إن الإيمان بالقدر هو بمثابة تميمة تحمينا من الشرّ، إنه العناية الإلهية في أسمى تجلياتها، حسبما أظن..

إن آثار الدموع التي أعثر عليها في رسائلك، تلك الدموع التي أنا سبب ذرفك لها، تتسبب لي في تأنيب الضمير، وتضاعف شعوري بالتقزز من نفسي، آه، ليتني أستطيع مقايضة دموعك الغالية هذه بدمي. كم كنت سأمقت نفسي لولا إعجابك بي. لا أود أن أعذب روحك، ولكننا للأسف كثيراً ما نعذب الأشخاص الذين نحبهم، وأحياناً أحباؤنا هم الذين يجعلوننا نتجرع كؤوس العذاب! أخبريني لماذا تعاتبينني على هذه الجملة التي كتبتها لك سابقاً: «أتمنى لو أنني لم أعرفك قط!»، رغم أنه في نظري، ما من جملة تضاهيها رقة، سأعترف لك بشيء، في الليلة التي توفيت فيها شقيقتي المسكينة، التي رحلت في رمشة عين، وكان موتها المفاجئ سبباً في إثارة سخطنا جميعاً، كنا نتحدث عن معاناة أمي، وفجأة، وجدتني أقول: «يا ليتها ماتت هي الأخرى!»، ثم تابعت: «أجل، إذا ما رغبت أمي في أن تلقي بنفسها من النافذة، فإنني سأفتحها لها على الفور!». على ما يبدو، فإن كل ما أقوله عبارة عن جمل قديمة الطراز ما عاد أي شخص في زمننا هذا يستعملها، بل إنها صارت في نظر الجميع جملاً سخيفة أو قاسية، لكن بحق الشيطان، ما عساني قائل وقلبي ممتلئ حدّ الموت بحبك؟ اسألي نفسك عما إذا صادفت في الماضي الكثير من الرجال الذين كانوا سيتجرؤون على كتابة مثل تلك الرسالة التي أوجعتك للغاية؟ أنا متيقن من أن القليل منهم كانوا سيملكون الشجاعة والإيثار المطلوبين ليوجهوا

لك رسالة مماثلة، حبيبتي، يلزمك أن تمزقي تلك الرسالة، وأن تقلعي عن التفكير فيها، أو إذا شئت، بإمكانك الاحتفاظ بها بغية إعادة قراءتها من حين إلى آخر عندما تشعرين بأنك تملكين القوة الكافية لذلك..

بالمناسبة، إذا ما كتبتِ لي رسالة جديدة يوم الأحد، فاحرصي على إرسالها باكراً، لأنك تعلمين أن مكتب البريد يغلق أبوابه على الساعة الثانية ظهراً. بالأمس لم أتوصل بأية رسالة منك، لذا سيطر علي خوف مبهم، ولكنني اليوم توصلت برسالتيك في الوقت نفسه، وبالوردة الصغيرة التي أهديتني إياها، آه، لو كان بوسعي أن أخبئك أنت في درجي الصغير وأحرص على إغلاقه جيداً بالمفتاح!

هيا، اضحكي! إنني اليوم مبتهج، مع أنني في الواقع لا أعرف سبب ابتهاجي، ربما بفضل عذوبة رسائلك وكلماتك التي تسري في دمي، ولكن أرجوك، توقفي عن ترديد تلك العبارات الشائعة التي أسمعها منذ زمن، عبارات من قبيل: إن الغنى هو الذي يمنعني من معرفة المعنى الحقيقي للسعادة، وإنني إذا ما كنت أمارس عملاً ما فسأصبح في حال أفضل. وكأنه يكفي أن أعمل كصيدلي، خباز أو تاجر خمور كي لا أشعر بالملل! أؤكد لك أن كل هذا الكلام سبق وأن سمعته مراراً من مجموعة أشخاص برجوازيين، لذا لا أرغب في أن أسمعه منك أنت أيضاً!

أنا ممتن لك لأنك تقبلت صمتي الأدبي، أعتقد أنه حينما سيكون لدي نص جديد فسأخبرك به لا محالة، آه، كم أرغب في أن أؤلف أعمالاً عظيمة كي أثير إعجابك! وكم أرغب في أن تسري القشعريرة في جسدك بسبب أسلوبي، ورغم أنني لا أود أن أحصد المجد، لا أخفيك أني أريد الحصول عليه لأهديه لك كباقة من الغار..

تقولين إنني رجل وسيم، أنت ترينني وسيماً لأنك تحبينني، كم أود

أن أكون وسيماً بالفعل، وأن أحظى بشعر أسود فاحم، مموج، يصل إلى كتفي اللذين أتمنى لو كانا عاجيين كأكتاف المراهقين اليونانيين، أود أن أكون قوياً، وبريئاً في آنٍ واحد، ولكنني حينما أرنو إلى مرآتي، أفكر في أن شكلي عادي للغاية، كما أن يدي صلبتان، وركبتي ناتئتان، وصدري ليس عريضاً. فقط لو أنني كنت أملك صوتاً عذباً وأتقن الغناء، آه، حينها كنت سأعيد تشكيل التنهدات والآهات التي تتبخر في الفضاء في كل مرة أحن فيها إليك! وفقط لو أنك تعرفت علي قبل عشر سنوات، وقتها، كنت فتياً، نضراً، ينبعث مني عبق الحياة والحب، ولكنني الآن أشعر بأن النضج الذي بلغته مقترن بالذبول والاضمحلال.. كما أتمنى لو كنت أول امرأة في حياتي! وأول امرأة اختبرت معها نشوة الجسد والروح! إنني نادم على ماضيَّ بأكمله، ويهيأ لي أنه كان علي أن أحتفظ لك بقلبي، وأنتظر التعرف عليك، لأهديك إياه، إلا أنني لم أفعل هذا كوني لم أعتقد يوماً أن امرأة مثلك ستحبني، بل إلى يومنا هذا يبدو لي وقوعك في حبي شيئاً استثنائياً وخارجاً عن المألوف، أعترف بأنني قبلك كنت أجد الحب إحساساً سخيفاً، لذا، منحت كل ما أكتنزه بداخلي، بإسراف رجل لا يأبه للإفلاس السريع.. لقد أحببت بجموح أشياء لا معنى لها، وقدست نساء دنيئات، وقدمت قرابين في كل المذابح الكنسية، كما ثملت في شتّى الحانات الرخيصة، آه، كم أهدرت ثروتي الأخلاقية! ونثرت القطع النقدية من نافذتي على العابرين، وألقيت بالقطع الذهبية في البحيرات والنافورات، إن ما أقوله لك الآن سيمنحك بلا ريب تصوراً تقريبياً عن الرجل الذي كنت عليه إبان إقامتي في باريس، حينها كنت أنفق ستة أو سبعة آلاف فرنك في السنة، ومع ذلك، كنت أستغني عن وجبة العشاء بمعدل ثلاث مرات في الأسبوع..

إنني أتعامل بالمنطق نفسه فيما يتعلق بالمشاعر أيضاً، فأنا أغدق مشاعري بسخاء على الجميع، بينما يتفشى البؤس في أعماقي، فلطالما عانيت من فقر مشاعر من حولي، ومع ذلك فأنا لا أجد نفسي كئيباً أو منكسراً، ربما كنت كذلك فيما مضى، لكنني ما عدت ذات الرجل، في فترة من الفترات، كنت تعيساً، ولو كنت عرفتني وقتئذ لكانت معاتبتك لي على كآبتي وتعاستي في محلها..

سأكتب رسالة إلى فيدياس، رغم أنني لا أعرف كيف سأطلب منه أن يمنحني ذريعة للسفر إلى باريس على وجه السرعة، أتراه في الريف؟ أين بالضبط ومتى سيعود؟

سآتي إلى باريس ذات مساء قريب، لأقضي بها يومين.. آه، لقد قرأت كتابك «حمقاوات وقديسات»، وجلّ كتاباتك الشعرية أيضاً، ومن أكثر الأجزاء التي راقتني قصة الخطيب اليوناني «ديموستين»، قصتك عن والدة سقراط «فيناريت»، قصة «الكونت جورج دي سينيفال»، وكذا قصة «الرجل القبيح»، كما أن إحدى قطعك الشعرية لامست أعماقي، إنها القطعة المعنونة بـ: «الحماسة»، لامستني كما لو كنت أنا مؤلفها، كما قرأت وأعدت قراءة نصك: «إلى صديقة» مراراً وتكراراً، نصك الشفيف هذا الذي أعلم علم اليقين أنك أنت بطلته، وتذكرت حينما قرأته لي أول مرة، وأنا أطوقك بذراعي، وأنت تنظرين إلي لتعرفي ما إذا كان النص قد نال إعجابي؟، كنت تودين أن أرسل لك نصاً من نصوصي، أليس كذلك؟، تفضلي، ها هو ذا جزء من نص قصير يذكرني بك، كنت قد كتبته منذ عامين وأرسلته إلى صديق عزيز:

«.. كان يتدفق من عينيها سائل مضيء، عيناها المتسعتان اللتان بدتا

أكبر حجماً، وكانت نظراتهما ثابتة، كما أن كتفيها العاريين كان يعتريهما شحوب جميل، وكأنهما مصنوعان من الرخام العتيق، وأوردتها المزرقة كانت تبرز تحت جلدها المحموم، وهي تذرف الدمع كان صدرها يتأرجح، صعوداً ونزولاً، وأنفاسها تتهدج.. استمر بكاؤها طويلاً، وكأن الزمن قد توقف.. أما أنا، فلم أكن أبصر شيئاً عدا مقلتيها اللتين تتسعان أكثر فأكثر، ولم أكن أسمع أي صوت عدا شهيقها الذي يتردد في الصمت الذي كان يطوقنا..

توجهت صوبها، وطبعت قبلة على عينيها الدافئتين، نظرت إلي بذهول متسائلة: «أتحبني؟ هل ستحبني إلى الأبد؟»، لم أجبها واكتفيت بضمها إلى صدري، وأنا أصيخ السمع إلى نبضات قلبها، لكنها تملصت مني وهي تقول: «دعني الآن، سأعود هذا المساء، إلى اللقاء، إلى اللقاء!»، ثم اختفت. وأثناء تناولنا لوجبة العشاء، ضغطت بقدمها على قدمي، ولامست مرفقي بنعومة وهي ترنو إلى الجهة المقابلة، وتهمس: «هل ستحبني إلى الأبد؟..».

أصحيح أنك تريدين أن أعلمك اللغة اللاتينية؟ لماذا، ما الجدوى من ذلك؟ في كافة الأحوال يلزمني أن أكون ملماً بهذه اللغة وأجيد التعبير بها، إنك تجاملينني بقولك إنني رجل خبير باللغات القديمة، إلا أنني أتمنى أن أتمكن في السنوات القليلة القادمة من قراءة هذه اللغات بيُسر..

لا رغبة لي في الاشتغال، إنني لا أفعل أي شيء عدا ذرع مكتبي طولاً وعرضاً، وبعدها أستلقي على أريكتي الجلدية الخضراء وأنا أفكر فيك، أما في فترة ما بعد الظهر، فإنني أشعر بأن الوقت يطول إلى حدّ متعب، وفكري يتسبب لي بالمزيد من الضجر، كم أود أن أكون رجلاً بسيطاً لأحبك حباً

طفولياً، أو ربما أتمنى لو أنني أملك موهبة شعرية مدهشة، كموهبة «غوته» أو «بيرون»، لأتغنى بحبك بلا توقف..

أترين، ما عدت أملك الشغف ولا الإرادة اللازمة لأكتب، كنت أخطط للاشتغال قليلاً اليوم، على أن أؤجل كتابة رسالتي هذه إلى المساء، ولكنني عجزت عن ذلك! لذا كان علي أن أستسلم، أحس أنني صرت كائناً رخواً وهشّاً لا يتحرك إلا للانصياع إلى أمرك! إنني أحلم بخصلات شعرك المموجة، وبشذاها النادر، آه، لو تعلمين كم أسترجع صوتك، وأتخيل كتفيك اللذين أعشق تنشق عبيرهما..

إلى اللقاء، إلى اللقاء حبيبتي.

إنه منتصف الليل، أعدت للتوّ قراءة رسائلك، وتأملت من جديد كل التذكارات التي أهديتني إياها، أرسل لك قبلاتي وأشواقي، لقد كتبت إلى فيدياس، وغداً سأتوجه إلى مكتب بريد «روان» لأرسلها إليه، وكلي أمل في أن أتمكن من زيارة باريس في أقرب وقت!

إلى لقاء قريب جميلتي، قبلاتي اللامنتهية..

* * *

ليلة الأربعاء (12 أغسطس 1846)

لقد مرّ هذا اليوم بأكمله دون أن تتلقي أية رسالة مني، لا بدّ في أن الشكوك ساورتك من جديد يا حبيبتي المسكينة، سامحيني، لأنني ارتكبت هذا الخطأ الخارج عن إرادتي بسبب ضعف ذاكرتي، فقد كنت أعتقد أن مكتب البريد في روان يغلق أبوابه عند الساعة الواحدة بعد الظهر، في حين أنه في الواقع يغلق عند الساعة الحادية عشرة صباحاً. ولكن ما بوسعي أن أؤكده لك، أنك إذا ما كنت تحملين ضغينة لي، فإنني سأجعلها تتبدد يوم الإثنين المقبل، إذ كلي أمل في أن تصلني رسالة من فيدياس الطيب يوم الأحد على أبعد تقدير، وبالتالي أتمكن من زيارتك يوم الإثنين!

كم أحببت فكرة الحفلة التي تخططين لإقامتها! إن عيني دمعتا من فرط التأثر، آه، أعلم علم اليقين أنك تحبينني! وإذا ما شككتُ يوماً في صدق مشاعرك فإن ذاك الشك سيكون بمثابة جريمة! ولكن، لو لم أكن أحبك كما تزعمين، فكيف تسمين كل ما أحسه تجاهك؟ إن كل رسالة تبعثينها لي تتسرب إلى قلبي أكثر من الرسائل التي سبقتها، سيّما رسالتك التي توصلت بها هذا الصباح، إنها رسالة مفعمة بسحر خاص، بالبهجة، بالطيبة، والجمال، مثلك تماماً، أجل، فلنعشق بعضنا! فلنعشق بعضنا نحن اللذان لم نحظَ بالحب من قبل!

سأصل إلى باريس عند الساعة الرابعة أو الرابعة والربع، وهكذا

سأوافيك قبل الساعة الرابعة والنصف، أتخيلني مسبقاً وأنا أرتقي السلالم، وأسمع ضجيج جرس بابك، ثم أقول ما إن يفتح لي أحدهم الباب: «هل سيدة المنزل هنا؟»، لتأتي الإجابة: «تفضل بالدخول». آه، إنني أستمتع بتخيلاتي حول الوقت الذي سأقضيه برفقتك، ولكن يبدو أنه مقدر لي إثر كل مرة أبتهج فيها أن أتذوق طعم الحزن، إذ إنني أفكر من الآن في لحظة افتراقنا، وفي الأسى الذي سيعتصر قلبك بعدها، ستكونين عاقلة أمام الوجع، أليس كذلك؟ فيما يخصني، فإنني أحس أن الحزن سيعتريني أكثر من المرة السابقة، إلا أنني لست من أولئك الذين يموت الحب الكامن في قلوبهم بفعل عذاباتهم وآلامهم، على العكس منهم، إن الآلام تشعل نيران حبي لك أكثر فأكثر..

إنني أتعامل مع ذكرياتي الجميلة تماماً كما يفعل العرب، الذين يختارون يوماً في السنة يولون فيه وجوههم نحو «غرناطة» وهم يتحسرون على ذلك الفردوس المفقود الذي ما عاد بمستطاعهم العيش فيه. اليوم مثلاً، كنت ماراً بالصدفة في الشارع الذي تتواجد فيه الثانوية التي درستُ بها، ورأيت العديد من الناس يقفون على عتبة الرواق المؤدي إلى المعبد الصغير، لقد كانت المناسبة هي حفل توزيع الجوائز على التلاميذ المتفوقين، الذين كنت أسمع صيحاتهم، ضجيج التشجيعات الموجهة إليهم، وكذا أصوات الطبل الكبير والآلات الموسيقية النحاسية. دخلت إلى المدرسة، وهيئ لي أنني سافرت في الزمن، وعدت إلى تلك الأيام التي كنت أدرس فيها هناك، وأنا أرى الستائر نفسها لا تزال معلقة في النوافذ ذاتها، وأستنشق من جديد رائحة أوراق شجرة البلوط التي كنا نبللها ونضعها على جباهنا، كما استرجعت ذكرى الفرح الجنوني الذي كان يستحوذ علي في حفل

توزيع الجوائز، لأنه كان البوابة التي تمكنني من العبور إلى الحرية التامة طيلة شهرين.. تراءى لي بين الحضور أبي، شقيقتي الراحلة، وأصدقائي الذين توفوا، غادروا البلاد أو تغيروا.. وخرجت من المدرسة وأنا أشعر بانقباض بشع في قلبي. كان حفل توزيع الجوائز هذا باهتاً، إذ إن الحضور لم يكن كثيفاً، مقارنة بالحشد الذي كان يملأ المعبد قبل عشر سنوات من الآن، ولم تكن الصيحات مرتفعة كما كانت في زمننا، ولم يغن أحد نشيد «لامارسييز» الذي كنت أصدح به بكل ما أملك من قوة. ببساطة، لقد فقد الحضور في أيامنا هذه الذوق! أذكر أنه فيما مضى، كانت النساء يأتين إلى هذه الحفلات بكامل أناقتهن، بل كانت تحضر إليها فنانات ومحظيات شهيرات، وكذا سيدات نبيلات، كن يقفن في الأروقة المشرفة على الساحة وكنا نشعر بالفخر حينما ينظرن إلينا! يوماً ما، سأكتب عن كل هذه الأشياء.. سأكتب عن الشاب العصري الذي كنت عليه، ذلك الشاب الصغير الذي تفتحت روحه في سن السادسة عشرة بفضل حب كبير جعله يتوق إلى الترف، المجد، وكل روائع الحياة، سأكتب عن الشاعرية المتدفقة والحزينة التي انبثقت من قلب هذا المراهق، ها هو ذا موضوع جديد لم يتطرق إليه أحد من قبل! آه يا لويز، سأخبرك بشيء قاس، ورغم ذلك ينبع من تعاطف شاسع وشفقة حميمية: إذا ما وقع في حبك فتى مسكين، وافتتن بجمالك، فتى يشبهني حينما كنت مراهقاً: فتى خجول، رقيق، يرتعش خشية منك، ومع ذلك يبحث عنك، يتجنبك ويتعقبك، فكوني طيبة معه ولا تصديه، فقط امنحيه يدك ليلثمها، إذ ذاك، سينتشي حدّ الموت، وإذا ما أضعت منديلك، فإنه سيلتقطه ليضعه فوق وسادته ويبلله بدموعه.. إن حفل توزيع الجوائز الذي عاينته قبل قليل فتح الضريح

الذي كان يرقد فيه صباي المحنط، واستنشقت روائح زهرة شبابي الذاوية، وعادت إلى روحي أنغام منسية، تتماهى مع الأغنيات التي يتردد صداها في غسق المساء، خلال تلك الساعات الطويلة التي تجول فيها الذاكرة بين ركام ذكرياتنا، كما يجول شبح بين الأطلال..

أترين، لن تعرف النساء كل هذه الأشياء، ولن يتحدثن عنها أبداً، صحيح أنهن يُجدن الحب أكثر مما نفعل نحن الرجال، بل إن حبهن أقوى من حبنا، ولكن هل يكفي أن يستحوذ علينا هذا الإحساس كي نجيد التعبير عنه؟ أثمة أغنية كتبها رجل ثمل؟ لذا، لا يتحتم علينا أن نعتقد اعتقاداً راسخاً أن الإحساس هو أهم شيء، ففي الفنون، لا يساوي الإحساس شيئاً إذا لم يتم تقديمه في القالب الفني أو الشكل الذي سيبرزه أكثر. ما أود قوله هو أن النساء رغم إسرافهن في الحب فإنهن لم يعرفن ماهيته كونهن انشغلن بأحاسيسهن وحسب، دون أن يعرن اهتماماً لجماليات الفن المجردة، إذ بالنسبة إليهن، لا بدّ من أن يرتبط حبهن بشيء ما، بهدف أو بمسألة عمليّة، لذا هن يكتبن لإرضاء أنفسهن لا لانجذابهن إلى الفن، الفن بمبادئه الشمولية التي تجعله مكتفياً بذاته دونما حاجة إلى أي سند، أعلم جيداً أننا أنا وأنت لا نتشارك هذه الأفكار، لكنني فيما بعد سأحدثك عنها مطولاً آملاً أن أنجح في إقناعك بها، أنت التي خُلقت شاعرة.

قرأت أمس قصتك «ماركيز أنتروكاستو»، إنها مكتوبة بأسلوب جيد، حيوي ورصين، أعجبتني البداية على وجه الخصوص، النزهة، وكذا المشهد الذي تظهر فيه زوجة الماركيز وحيدة في غرفتها، قبل أن يأتي زوجها.

لا زلت أتعلم القليل من اللغة اليونانية، كما أقرأ «رحلة جان شاردان»

استكمالاً لمطالعاتي حول الشرق، وكذلك بغية الاستعانة بها لكتابة حكاية شرقية تشغلني منذ سنة ونصف، ولكنني أشعر منذ مدة أن خيالي ناضب، فكيف لي أن أحلق في سماء الإبداع وأنا أشبه نحلة علقت أرجلها داخل جرة مربى، وهي تغوص رويداً رويداً حدّ الاختفاء! إلى اللقاء حبيبتي، عودي إلى حياتك المعتادة، اخرجي، استقبلي الضيوف، ولا تغلقي بابك في وجه الأشخاص الذين التقيتهم في منزلك، والذين لست أدري لمَ أود أن أقابلهم مجدداً، ربما لأنني حينما أحب تفيض عواطفي لتغمر كل المحيطين بمحبوبتي.

إلى اللقاء، ألف قبلة..

* * *

ليلة الجمعة (14 أغسطس 1846)، الواحدة بعد منتصف الليل

كم هي رائعة الأبيات التي ترسلينها إلي، إذ إن إيقاعها عذب مثل مداعبات صوتك عندما يمتزج اسمي بتغريدك الناعم. واعذريني إن قلت لك إنها أجمل ما خطته أناملك على الإطلاق، وأؤكد لك أن قولي هذا ليس نابعاً من حب الذات، فليس هذا ما جعلني أفكر في أنها كتبت من أجلي، لا، بل لأنني استشعرت فيها حبّاً ورقة استثنائيين، أتدرين أن لمساتك تتماهى مع لمسات حورية مغوية بوسعها أن تفتك بأعتى الرجال؟

نعم جميلتي، لقد غمرتني بسحرك، ونفذت إلى أعماقي بجوهرك. آه، وإن كنت أبدو بارداً في نظرك، وكانت كتاباتي الساخرة قاسية وتجرحك كما تقولين، أريد، عندما ألقاك مرة أخرى، أن أغمرك بالحب والملذات والثمالة. أريد أن أشبعك من كل نعم الجسد حتى تضجري منها، أن أميتك وأبعثك، لأنني أريدك أن تنبهري بي وتعترفي في أعماقك أنه ما كان لك أن تحلمي بمثل هذه النشوة، أنا الرجل الذي غمرته بالسعادة، لذا أود أن أمنحك إياها بدوري. كما أود أن تتذكري في شيخوختك هذه اللحظات القليلة العابرة وأن ترتعش عظامك المتيبسة من الفرح عندما تسترجعها ذاكرتك. إنني لم أتلق بعد رسالة فيدياس (أنتظرها بفارغ الصبر والكبرياء)، لذا، لا أستطيع أن أكون في منزلك مساء الأحد. ومن ثم لن نستطيع أن نمضي الليل كله معاً. علاوة على ذلك، أنت ستستقبلين

أشخاصاً في منزلك مما يحتّم عليّ أن أرتدي أفخم ملابسي وبالتالي أن أحمل الأمتعة. والحال أنني أريد أن آتي إليك بلا أمتعة أو صناديق كثيرة، لأكون متحرراً من أي شيء يزعجني.

أتفهم رغبتك في رؤيتي مرة أخرى في المكان نفسه، مع الأشخاص ذاتهم؛ أنا أود ذلك أيضاً. ألا نتمسك بماضينا مهما كان قريباً؟ وألا تجعلنا شهيتنا الحياتية نلوك مشاعر الأمس، ونحن نتطلع إلى مشاعر المستقبل. إن العالم لا يسع روحي بما يكفي، فأنا أحسها تختنق في الوقت الراهن. ولهذا غالباً ما أسترجع ذكرى قنديلك، فانظري إليه عندما تقرئين هذه السطور، واشكريه على نوره الذي أعارني إياه.

لقد وصل صديقي «دو كامب» إلى هنا اليوم، حيث من المقرر أن يقضي شهراً.. وأحضر لي صورتك. إن إطارها مصنوع من الخشب الأسود المنحوت، والنقش بارز بشكل جيد. ها هي ذي صورتك الجميلة أمامي، موضوعة برفق على وسادة من وسائد أريكتي الفارسية، في الزاوية، بين نافذتين، في المكان الذي أخمن أنك ستختارين الجلوس فيه إذا ما أتيت إلى هنا. على قطعة الأثاث هذه قضيت العديد من الليالي في شارع «دي ليست»، وخلال النهار، عندما كان ينال مني التعب، كنت أستلقي فوقها وأنعش قلبي بحلم شِعْرِيٍّ عظيم، أو بذكرى حب قديمة. سأتركها هنا هكذا، لن يمسها أحد (صورتك الأخرى تقبع في خزانتي، فوق خفيك). لقد رأت أمي صورتك فأعجبها وجهك، ووجدتك جميلة، ومفعمة بالحيوية، ومتفتحة، ولطيفة، كانت هذه كلماتها (أخبرتها أن النقش قد طبع للتوّ، عندما قمت بزيارتك، وأن عدة نسخ منه قد أحضرت إليك ثم قدمتها هدية لضيوفك).

تسألينني بسخرية إذا ما كانت تلك السطور القليلة التي أرسلتها إليك قد خطت من أجلك فعلاً، إنك ترغبين في معرفة هوية المرأة التي استلهمتها منها، هل تغارين؟ تيقني من أنني لم أكتبها من أجل شخص معين، مثل كل ما كتبته.. منذ البدء امتنعت عن كتابة أي شيء يتعلق بي في أعمالي، ومع ذلك فإنني خلفت فيها الكثير من آثار حياتي، في الواقع، لقد عملت دوماً على عدم التقليل من الفن بغية إرضاء شخصية عابرة، لذا حبرت صفحات مترعة بالرقة دون أن أعيش قصة حب، وكتبت صفحات تغلي دون أن تسري ناره في دمي. لقد تخيلت وتذكرت ودمجت بعض المشاهدات.. وهكذا فإن ما تقرئينه مجرد ذكرى لشيء مبهم. أنت تتوقعين أنني في يوم من الأيام سأؤلف أشياء مدهشة، من يدري؟ أشك في ذلك، فقد أخبرتك أن مخيلتي تنطفئ، كما أنني أصبحت ذا ذوق خاص ومتطلب للغاية. كل ما أتمناه هو أن أستمر في نيل إعجاب المعلمين الكبار مثلك بهذا السحر الإبداعي الحميم الذي سأبذل من أجله كل شيء، كل شيء، ولكن وفي انتظار أن أصبح واحداً منهم، فأنا لست متأكداً من ذلك أبداً، كوني أفتقر للكثير: الموهبة الفطرية أولاً، وثانياً المثابرة في العمل، وأنا أؤمن بأن المرء لا يعثر على أسلوبه الخاص إلا من خلال العمل المكثف، وكذا بفضل عناده وإخلاصه وتعصبه لفكره. ولهذا فإنني أجد مقولة «بوفون» هذه كفراً عظيماً: «لا تتأتى العبقرية من الصبر الطويل». ولكنها مع ذلك تتضمن جزءاً من الحقيقة، سيّما في أيامنا هذه.

قرأت هذا الصباح أبياتاً من مجلدك مع صديق جاء لرؤيتي. إنه فتى فقير يعطي دروساً هنا لكسب لقمة العيش وهو شاعر، شاعر حقيقي، يؤلف

أشياء رائعة وساحرة، وسيبقى مجهولاً، لأنه يفتقر إلى شيئين: لقمة العيش والوقت. أجل، لقد قرأنا ما تخطينه وأعجبنا بك أيما إعجاب.

لا أريدك أن تريني الآن، فأنا قبيح إلى درجة تثير الرعب. ظهرت حبة كبيرة في خدي الأيمن أدت إلى انتفاخ عيني والجزء العلوي من وجهي بكامله. سأبدو سخيفاً إذا ما رأيتني بهذه الحالة، بل ربما يوليني الحب ظهره ويمضي في وجوم، لأن البشاعة تخيفه. لكنني أعدك بأنني سأكون معافى عندما نلتقي مرة أخرى، بعد أن يعود وجهي كما كان من قبل، وترينني على الصورة التي تحبينها.

أخبريني إذا ما كنت تستخدمين الأعشاب العطرية، هل تضعينها على مناديلك؟ أم تضعينها على قميصك؟. لكن لا، لا تضعي العطر؛ فأفضل عطر هو الأريج الطبيعي الذي يفوح من بشرتك الناعمة. هيا، يلزمني أن أودعك الآن، أتمنى أن أتلقى صباح يوم غد رسالة منك.

إلى اللقاء، أرسل إليك ألف قبلة، ربما نلتقي يوم الإثنين..

المخلص لك جسداً وروحاً.

***

الإثنين (16 أغسطس 1846)

إن سوء الحظ يلازمني كالمعتاد! لأنه في حالتي كلما رغبت في شيء صعب علي الحصول عليه، ببساطة، أعتقد أن هذا هو قانون الحياة!

سيكون من المستحيل بالنسبة إلي أن آتي إلى باريس هذا المساء، إن رأسي مغطى بالكامل بالكمادات، بسبب تلك البثور البشعة التي انتشرت في جسدي كله، إنني راقد في سريري بلا حراك، وأكتب لك هذه الرسالة وأنا طريح فراش المرض، لكنني أتحامل على نفسي كما لم أفعل من قبل آملاً أن أتحسن، وأن يصبح مرضي هذا مجرد ذكرى تثير ضحكنا نحن الاثنين!

لا أظن أنه بوسعي القدوم إلى باريس غداً الثلاثاء، لذا لا تعولي على ذلك، سنلتقي إذن يوم الأربعاء، في الساعة المتفق عليها.

لقد تعذر علي أمس أن أبعث لك رسالة، إذ كنت أخطّط لإرسال خادم أخي إلى مكتب البريد، ولكنه لم يأت..

لا شك في أنني سأتسبب في إثارة قلقك وغضبك عندما أتخلف عن موعدنا هذا المساء، ولكن رجاء اعذريني، وثقي بأنني أعاني أكثر منك بكثير بسبب استحالة لقياك! فتحلّي بالصبر يا جميلتي، لأننا سنلتقي بعد بضع ساعات..

أود أن أخبرك بأنني لم أتمكن من النوم هذا المساء، لذا أشعلت قنديلي وقرأت قصتك «الكفَّارة» وكذا روايتك الشعبية «ريفية في باريس»، هذه الرواية التي لم تحدثيني عنها والتي رفهت عني كثيراً، إنها تحفة أدبية كاملة، أخاذة، وناضحة بالفكر المميز، أما فيما يخص قصة الكفارة، فإننا سنتحدث عنها لاحقاً.

إلى اللقاء، إن الألم يستعر في جسدي أكثر فأكثر..

إلى اللقاء، إلى اللقاء، قبلاتي.

المخلص لك على الدوام.

* * *

الثلاثاء (18 أغسطس 1846)، صباحاً

ها أنذا أقف من جديد على قدمي بفضل عنادي! لقد تبعت حدسي الذي نبأني بأنني سأبرأ من هذا المرض في غضون يومين لا بعد ثمانية أيام كما توقع جميع من حولي!

الآن، ما عدت أعاني سوى من بعض الندوب، سأكون في منزلك غداً عند الساعة الرابعة والنصف أو الخامسة مساء على أبعد تقدير، أنا متيقن من هذا، سنلتقي حتماً، رغماً عن سوء الحظ، رغماً عن الشيطان!

إلى الغد إذن، هل سندعو فيدياس إلى تناول وجبة العشاء معنا؟ ما رأيك؟ فكري جيداً في هذا الأمر..

آه، بعد ساعات سأكون في الطريق إليك، أيها النهار، امضِ بسرعة، أيها الليل الطويل، اطوِ ساعاتك وانقضِ!

إنها تمطر الآن، وثمة غطاء رمادي يطبق على السماء، إلا أن شمس حبك تسطع في قلبي!

إلى اللقاء، كان بودي أن أكتب إليك رسالة أطول بكثير، ولكن ساعي البريد سيمر بعد قليل، لذا أنا مضطر لأن أختم هذه الرسالة على عجل.

غداً، سنلتقي حقّاً، غداً، سألمسك، أحياناً، يخيل إلي أنك حلم بعيد وأنه لا وجود لك في الحقيقة يا حوريتي!

مع حبي اللامنتهي.

* * *

الخميس (20 أغسطس 1846)، الواحدة صباحاً

أنا وحيد الآن، وحيد للغاية! وكأنني كنت في حلم، حلم بعيد، آه كم يبدو ما عشناه ذات حلمنا القريب وكأنه قد مرّ عليه زمن طويل، وكأن قروناً قد انصرمت بين لقائنا هذا المساء وبين هذه اللحظة! هذا المساء فقط، كنت برفقتك، كنا معاً، كم كانت نزهتنا في الغابة رائعة رغم سوء الطقس! وهذه الليلة، بعدما ودعتك، تساقطت الأمطار، كانت السماء قاتمة، وبدا لي أن قطرات المطر تلك تتماهى مع دموع المحبين المفترقين.

أستعيد ذكرى لقائنا في الفندق، قبل أربع وعشرين ساعة وحسب، أتذكرين؟ آه، كم كانت عيناك تلمعان، وكان وجهك باسماً، ونظراتك المترعة بالعشق والانتشاء تضفي على ملامحك الجميلة مسحة من الدهشة، دهشة الحب! آه، كم هو مؤلم أن يستعصي علينا القبض على لحظات السعادة المنلفتة! إلى اللقاء، سأستلقي في سريري وأقرأ قبل النوم الرسالة التي كتبتها لي في انتظاري..

إلى اللقاء، إلى اللقاء، أرسل إليك ألف قبلة حب، ما زلت ظمآناً للارتواء من ثغرك..

* * *

الجمعة (21 أغسطس 1846)، منتصف الليل

كتبت لك ليلة أمس رسالة سأبعثها لك مع رسالة هذه الليلة، لقد توقعت أن ينبئني أحدهم بمرور ساعي البريد، إلا أن خادمي ارتأى ألا يزعجني لأنني كنت أغط في النوم، كما أن ساعي البريد مرّ بسرعة كونه لم تكن في حوزته أية رسائل ليسلمها إلي، أما زوج شقيقتي الذي كنت أعول عليه لأنه يقصد مركز روان كل يوم تقريباً، فقد غادر المنزل على الساعة الثامنة صباحاً دون أن يسألني عما إذا كنت أحتاج شيئاً. أترين، كل هذا جعل من المستحيل أن أبعث لك الرسالة أمس، لكنني غداً، سأتوجه بنفسي إلى مركز البريد قبل الحادية عشرة صباحاً لأرسل لك هاتين الرسالتين، كي تتوصلي بهما في اليوم نفسه.

لا بدّ من أنك شعرت بالملل اليوم، لقد فكرت فيَّ كثيراً، أليس كذلك؟ وكم كان يومك طويلاً! وأنا أيضاً كان يومي رتيباً.. ثم إن المطر تساقط بغزارة ودون توقف! لذا شعرت بانقباض رهيب في قلبي إلى أن حلّ الليل. كم كان كل شيء مختلفاً قبل يومين فقط يا حبيبتي المسكينة! إلا أن حزني لا تشوبه مرارة، كونك أدخلت على قلبي بهجة ما زالت آثارها تخفف عني وطأة فراقك، إن ذكراك العذبة والرقيقة تضيء روحي، وأتخيل تعبير السعادة المرتسم على ملامحك الجميلة عندما كنت بالقرب منك، وأنت تتأملينني، أتدرين، أعتقد أنه لن يعود بمستطاعي العيش بدونك، إن هذه

الفكرة تصيبني بالدوار، ترى كيف سيكون مآلنا؟ لا يهم، فلنعشق بعضنا، فلنعشق بعضنا، إن العشق بمثابة بلسم يطيب جراحنا..

في الواقع، لا أجد أية كلمة أقولها لك من فرط امتلائي بك، عدا الكلمة الخالدة: أحبك..

لقد تأثرت بإهدائك لي قلادتك، رغم أنني في البداية رفضتها، لأنها بدت لي هدية غالية لا أستحقها، وبعدها، فهمت أنك ترغبين في منحي شيئاً غالياً على قلبك، لذا خشيت أن يتسبب رفضي في اجتياح الحزن لك مما جعلني أقبل هديتك. وأنا الآن أشعر بالسعادة، وأتأملها بفخر واعتزاز..

هل قابلت فيدياس؟ لماذا لم يلتحق بنا يومها؟ أنا أظن أنه تصرف بلباقة لاعتقاده بأن غيابه سيجعلنا مرتاحين أكثر، وإذا كان تخميني في محله، فلا بدّ من أن نكون ممتنين له، احرصي على معرفة ما إذا كان سيأتي إلى روان ومتى بالضبط كي أقوم معه بالواجب.

أسترجع عشاءنا قبل يومين (كم يبدو ذلك بعيداً!)، كم غمرني الهدوء والسكينة الروحية حينما تأبطتِ ذراعي، آه، لا تتهميني مجددا بأنني لا أرى سوى الجانب البائس من الحياة! لكنني أتساءل: لم يتحتمَ علينا أن ندفع نظير ساعة من النشوة ما يناهز شهراً من المعاناة؟ قومي بإحصاء الدموع التي سكبتِها مذ افترقنا، لا ريب في أن عددها يفوق عدد القبلات التي تبادلناها، أليس كذلك؟

آه كم كنا سعيدين ونحن نتنزه في العربة، نتحدث ونحن نمسك بيدي بعضنا البعض، في تلك اللحظة، تخيلت كيف كانت ستبدو حياتنا لو أننا كنا في ظروف مغايرة، لو كنت لا أزال أقطن بباريس، لو كنت وحيدة، ولو كنت حرّاً، حينها، ربما كنا سنتزوج، ونقضي شهر عسل رائعاً، ثم نعيش

معاً شبابنا في غنى وترف، وأنت هل بمستطاعك أن تتخيلي هذه الحياة الناعمة، التي سنمضيها معاً ونحن نكتب ونعشق بعضنا؟

اليوم لم أقم بأي شيء، إذ لم أقرأ أو أكتب ولو سطراً واحداً، لقد علقت على حائط غرفتي نقش «القديس أنطوان» الذي أبدعه الفنان «جاك كالو»، إنني أحب هذه التحفة كثيراً، وكنت أرغب في اقتنائها منذ مدة طويلة، إن الزخرفة الغروتسكية الموشاة بالحزن تحظى بجاذبية لا تضاهى في نظري، وتتناغم مع رغباتي المتصلة بطبيعتي التي تتماهى مع طبيعة مهرج حزين، هذا المهرج الذي لا يضحكني ولكنه يجعلني أغوص في أرض الحلم، هذا المهرج الكامن بداخلي هو الذي يمنعني من أن آخذ نفسي على محمل الجدّ، رغم أنني أحظى بفكر متزن، لكنني أجد نفسي سخيفاً نوعاً ما، لا أقصد هنا السخافة النسبية لبعض الشخصيات الكوميدية المسرحية، وإنما السخافة الجوهرية للحياة البشرية في حدّ ذاتها، تلك السخافة التي تتجسد أحياناً في أبسط أفعالنا أو إيماءاتنا العادية، من الصعب أن أفسر لك كل هذا، وأن أطلب منك أن تحسي بما أحسه، فأنا واثق من أنك لن تستوعبي إحساسي هذا، أنت الأنثى الكاملة والمتسقة كقصيدة تتغنى بالحب والجمال، بينما أنا أشبه زخرفة عربية مطعمة في آنٍ واحد بقطع من العاج، الذهب، الألماس، الورق المقوى الملون والحديد الأبيض..

إلى اللقاء، أغمرك بقبلاتي، فكري بي كما أفكر بك، أو لا، لا تفعلي، فكري بي بدرجة أقل، واكتبي، كوني حكيمة، وكوني سعيدة، انشغلي بفكرك، واستجدي ملهمة الشعر التي تواسيك في أيامك الصعبة، لأنني لا أستطيع إلهامك إلا في أيامك المفعمة بالفرح.

إلى اللقاء، قبلاتي الحارة.

* * *

الأحد (23 أغسطس 1846)

عندما يأتي المساء، وألوذ بوحدتي، وأنا واثق من أن لا أحد سيزعجني بعدما خلد جميع من في المنزل إلى النوم، أفتح الدرج الذي حدثتك عنه وأسحب منه ذخيرتي المقدسة ثم أضعها فوق طاولتي: خفاك الصغيران، منديلك، خصلة شعرك، والكيس الذي أخبئ بداخله رسائلك التي أعيد قراءتها وألمسها بحنين، إن رسائلك تتماهى مع القبلات، لذا تظل آخر رسالة كالقبلة الأخيرة، هي الأفضل دوماً.. أما الرسالة التي توصلت بها منك هذا الصباح، فإنها بين يدي، وأنا أخط لك هذه الرسالة التي لم تنتهِ بعد، وفي الوقت ذاته أعيد قراءة رسالتك الرقيقة عساني ألمح طيفك وأستنشق عطرك عبر سطورها..

أتخيل الوضعية التي تتخذينها وأنت تكتبين إلي، ونظراتك الشاردة وأنت تقلبين الصفحات، أتخيّلك جالسة في مكتبك الذي تنظمين فوقه أبياتك الشعرية، تحت ضوء قنديلك الذي كان على قُبلنا الأولى، أشعلي قنديلك في المساء، وتأملي شعلته الشاحبة وتذكري تلك الليلة التي شَهِدَتْ تَجَسُّدَ حبنا. قلتِ لي إنك ما عدت ترغبين في استخدام هذا القنديل، لماذا؟ إنني أظن أنه مرتبط بقصتنا إلى حدٍّ كبير، ولذا أنا أحبه كثيراً، في الواقع أنا أحب كل ما يحيط بك، كل ما بحوزتك، كل الأشياء التي تستخدمينها وتلمسينها.. بل إنني أشعر بالحب تجاه الأشخاص الذين

تعرفينهم وتستضيفينهم في بيتك، لمَ؟ ببساطة إنه تأثير البهجة التي يمنحني إياها حبك، هذه البهجة التي تتدفق مني وتتناثر حتى على الأشخاص العابرين والجماد.. لأننا حين نحب، يشمل حبنا كل ما يرتبط بمحبوبنا..

إن الحب بالنسبة إلي، هو طريقة للرؤية بمنظور مختلف وللإحساس بالحياة والأحياء بشكل خاص، وهذا المنظور المختلف شمولي وسامٍ، يجعلنا نكتشف احتمالات لا نهائية وآفاقاً لا محدودة!

ها أنذا أعيد قول هذا الكلام الذي لا يروقك، لكن أرجوك، لا تتهميني بالقسوة لأنني حكيم، وبالبرود لأنني حذر! أتعلمين أنك أنت هي القاسية؟ إذ إنك لا تتوقفين عن إلقاء اللوم علي واتهامي بأنني لا أحبك، معللة ذلك بكوني لا أزورك إلا لِماماً وأودعك لأعود بسرعة إلى روان، إنك تجرحينني بقولك هذا، أتظنين أنه كان بمستطاعي البقاء بالقرب منك ولم أرغب في ذلك؟ بربك ماذا كنت ستفعلين لو كنتِ في مكاني؟!

إنك تحدثينني دوماً عن عذاباتك، وأنا أصدقك، لأنني رأيت دموعك كدليل على ما تعانينه، بل إنني أشعر بمعاناتك تتفشى بداخلي كعدوى، إلا أنني شاهد على عذابات أخرى هنا، بالقرب مني، إنها عذابات أمي التي لا تشتكي أبداً، على العكس من ذلك، إن الابتسامة تكاد ألا تفارق محياها، لذا فإن معاناتك مقارنة بمعاناة أمي ستكون كمقارنة الألم الذي تولده لسعة نحلة بالآلام الناجمة عن الاحتراق، أو مقارنة التشنجات بالاحتضار، إنني بين المطرقة والسندان، حيث يهيأ لي أن أكثر امرأتين أحبهما تمسكان بوثاقي وكل منهما تشده إلى اتجاه معاكس لاتجاه الأخرى، وتستمران في شدي وتتناوبان على تقييدي بحبال الحب والألم، فسامحيني إذا ما أثار كلامي هذا غضبك، لكنني ما عدت أعرف ما بوسعي قوله لك، إنني أتردد

في كل مرة أكتب إليك فيها خوفاً من أن أتسبب في بكائك، مثلما أخشى في كل مرة ألمسك فيها أن أتسبب لك في جرح جراء لمساتي العنيفة، طفلتي المسكينة، كوني عاقلة أكثر، ولا تحزني من أجل أوهام تملأ رأسك!

المفارقة أنك تعاتبينني على إفراطي في التحليل، في حين أنك أنت التي تصفين كلماتي بأنها تتحلى بِدِقَّةٍ مؤذية! إن فكري لا يعجبك، وشعلاته تثير استياءك، لذا تودين أن أكتب بنفس نبرتك، وأن أضفي على رسائلي مسحة من الحنان، وكذا أن أشذب لغتي القاسية، ها أنت تتصرفين كما يتصرف الآخرون معي، كما يتصرف الجميع! إنك صرت شبيهة بأولئك الذين يلومونني على الصفة الوحيدة الجيدة بالنسبة إلي: اندفاعي، حماسي وعفويتي الساذجة! على ما يبدو، أنت بدورك تريدين أن تشكليني على النحو الذي يناسبك، ما عساني فاعل؟! إنني أحبك بطريقتي الخاصة، إنك تتساءلين عما إذا كنت أحبك أكثر مما تحبينني أو أقل من حبك لي؟ الرب وحده يعلم! ولكنني أحبك! ثم إنك تقولين إنني ربما فعلت ما أفعله من أجلك مع نساء دنيئات، كلا، لم يسبق أن كنت هكذا مع أية امرأة قبلك، وأنا أقسم على ذلك! إنك أول امرأة سافرت بغية لقياها، أنت وحدك من تجشمت هذا العناء من أجلها! لأنك المرأة الوحيدة التي أحببتها إلى هذا الحدّ، بما أنك أول امرأة تحبني بكل ما أوتيت من مشاعر، لم يحدث أبداً أن ذرفت إحداهن الدموع بالحرقة نفسها التي تبكين بها، ولا أن وجهت إلي أية امرأة نظرات مثل نظرتك المشوبة بالحنان والحزن في آنٍ واحد، كما أؤكد لك أن ذكرى ليلة الأربعاء هي الأكثر عذوبة من بين كل الذكريات، إن هذه الذكرى ستكون أكثر ذكرى حب سأتحسر عليها حينما أصبح شيخاً طاعناً في السن..

شكراً لأنك بعثتِ لي رسالة الفيلسوف «فيكتور كوزان»، لقد استوعبت ما عنيته بهذا: إنه بمثابة تحية وتضحية تقدمينها إلي، وكأنك تقولين لي: «ها أنا ذا أضع هذا التكريم تحت قدميك لأنني أحبك!»، إنك تغدقين علي عطاياك يا ملاكي: مجدك، شعرك، قلبك، جسدك، محبة الناس لك.. إنك تمنحينني بسخاء ثرواتك كلها لتشعريني بالرضا وترضي غروري، فليهنأ بالك، فأنا سعيد وفخور بك، أجل، أنا سعيد، أقولها وأكررها، ويكفيني أنك راسخة دوماً في روحي وعقلي بذكراك الناعمة البديعة، إن رقة قلبك مدهشة!

هذا المساء، لمح شقيقي نقش صورتك، وتعرف عليك قائلاً: إنه قد سبق وراقصك قبل عشر سنوات في حفل نظمه فيدياس، كما قال لي إنك جميلة، فأجبته: «أجل، لا بأس بها»، بينما كنت أرغب في أن أصيح معلناً حبي لك، ولكن بُرود شقيقي منعني من ذلك..

إلى اللقاء، أرسل إليك باقة من أعذب القبلات.

استقبلي ضيوفك، واستمتعي بالحفل الذي ستقيمينه، وكوني كعادتك طيبة ولطيفة مع الجميع، عودي إلى حياتك، اكتبي، تحلي بالشجاعة، ستبذلين بعض الجهد كالمعتاد، وبعدها سيعود إليك الشغف، افعلي هذا من أجلي، أرجوك، ولا تدعي تيار الحزن يجرفك، فللحزن إغراءات مخاتلة!

إلى اللقاء مرة أخرى، قبلاتي.

* * *

الإثنين (24 أغسطس 1846)، مساء

لن أتمكن من الكتابة إليك غداً، ولا بعد غد حسبما أعتقد، يا حبيبتي، ولكنني سأكتب لك رسالة مطولة يوم الخميس أو الجمعة على أبعد تقدير.

سنغادر صباح غد (سأحاول ألا أرحل قبل قدوم ساعي البريد)، سنسافر لمدة قصيرة، إلى مكان بعيد نسبياً، ولن نعود قبل مساء الأربعاء، سنزور بعض الكاتدرائيات القوطية القديمة القديمة كَدِيرِ مدينة «جومياج» الذي يرقد فيه جثمان «أغنيس سوريل»، و«سان واندريل».. إلخ، سأفكر فيك طوال هذه الرحلة، وسأفتقدك، فقط لو تعلمين كم صارت أيامي طويلة، وكم غمر الصقيع لياليَّ، وأنا وحيد كأرمل حُرم من نِعم الحب بأسرها!

لا أقوم بأي شيء يذكر، لم أعد أقرأ، ولا أكتب إلا حينما أكتب إليك رسالة، ترى أين تبخرت حياتي السابقة، البسيطة، الملأى بالعمل والكتابة، أقول إنها حياة سابقة لأنها تبدو لي بعيدة بالفعل! لكنني لا أتحسر على هذه الحياة، لأنني لا أتحسر على أي شيء أبداً! إن هذه هي طبيعتي، وإذا ما عدت غير قادر على المضي قُدماً في طريق الكتابة، فإن هذا سيكون أمراً محتماً.

إنني لا أكف عن التفكير فيك، وذكراك الساحرة راسخة في قلبي، وأتخيلك مراراً وتكراراً وأنت ترفلين في فساتينك الجميلة، كما أتخيل إيماءات رأسك وأنت تطوقينني بذراعيك.

لقد ذرفتِ الدمع لأنك ظننت أنني لم أكن سعيداً إثر لقائنا الأخير، أهذا صحيح؟ بالعكس، كنت سعيداً جداً، كما لم أكن من قبل، بل فلنقل إنني بلغت معك ذروة السعادة! ولا أشك في أنني سأسعد أكثر، لأن حبك يكبر في قلبي يوماً بعد يوم، لذا أرغب في ألا أتوقف عن إعلان حبي وإثباته لك!

إلى اللقاء، ألف قبلة، مُحِبُّكِ وحبيبك المخلص.

* * *

الأربعاء (26 أغسطس 1846)، العاشرة مساء، (كرواسيه)

يا لها من التفاتة لطيفة منك، أنا أقدر كثيراً حرصك على أن ترسلي إلي كل صباح رسالة تشاركينني فيها تفاصيل يومك السابق، صدقيني، مهما بدت حياتك رتيبة، فعلى الأقل لديك دوماً شيء جديد تحكينه لي، لكنني أنا، عكسك تماماً، يكاد ألا يكون لدي أي شيء جديد لأحكيه لك، كون حياتي شبيهة بنهر راكد، خال من الحياة والحركية، لذا فكل أيامي متشابهة، بل يمكنني أن أخبرك مسبقاً بما سأفعله بعد شهر، أو بعد عام، ومع ذلك أحاول أن أستقي الحكمة والسعادة من هذه الحياة المضجرة.. أتعلمين، لا أحد يزورني، ولم يعد لدي أي صديق في روان، بوسعي القول إنه لا صلة لدي تقريباً بالعالم الخارجي، إنني منسي تماماً كَدُبٍّ قطبي منعزل في موطنه بالقطب الشمالي، أعترف لك أنني بطبيعتي أميل إلى العزلة، ثم إنني استخدمت الكثير من الحيل لأصل إلى عزلتي المنشودة، لقد حفرت بجُهدٍ كهفاً خاصاً بي واعتكفت بداخله، ترى ما النفع الذي سيعود علي من الاطلاع في كل صباح على الصحف الشهيرة التي ترغبين في أن أقتنيها لأقرأها وأنا أحتسي فنجان قهوتي الممزوجة باللبن وأتناول شطيرتي الغارقة في الزبدة؟ ماذا يهمني في كل ما يكتبونه في هذه الصحف؟! إن الأخبار قلما تثير فضولي، والسياسة تجعلني أشعر بالنعاس، أما القصص التي تنشر على شكل حلقات فإنها تثير

امتعاضي، هكذا فإن كل ما تنشره الصحف يضايقني ويكاد يفسد فكري، إنك تحدثينني عن الزلزال الذي ضرب مدينة «ليفورنو» بإيطاليا، لكن إذا ما شرعت في ترديد العبارات المتعارف عليها والتي تستعمل في مثل هذه الكوارث من قبيل: «هذا مؤسف! يا لها من كارثة مروعة! أمعقول ما حصل؟ آه يا إلهي!»، حينها هل ستعيد عباراتي هؤلاء الضحايا الذين قضوا في هذا الزلزال إلى الحياة؟ وهل سيستعيد أولئك الذين فقدوا كل ما يملكونه ممتلكاتهم التي لا تُقدر بثمن؟ إن الكوارث الطبيعية في نظري تخفي مغزى وحكمة لا يسعنا أن نفهمها، ومن الوارد جداً أن ثمة نفعاً إلهياً من ورائها، تماماً كالأمطار والرياح، لذا لا يكفي أن تنكسر أجراسنا الزجاجية جراء الصقيع كي نصلي للرب من أجل إلغاء العواصف، ومن يدري إذا ما كانت الرياح التي تسببت في انهيار سقف منزل هي نفسها التي ستجعل الغابة تزدهر؟، ولمَ لا يكون البركان الذي سيدمر مدينة ما هو نفسه الذي سيعود إليه الفضل في أن تصير منطقة بأكملها خصبة أكثر؟ ها هو ذا تَجَلٍّ آخر لغرورنا نحن البشر! إننا نجعل نفسنا محور الطبيعة، الهدف الأعظم للخلق، وغايته الأسمى، وكل ما لا يخضع لتصوراتنا ويتعارض معها يصيبنا بالحيرة ويثير سخطنا، يا إلهي! كم سمعت وتحملت طوال السنة الماضية من الخُطَب المثيرة للدهشة بخصوص إعصار «مونترفيل»: «لماذا حدث هذا؟ وكيف؟ ما السبب؟ في ثانية واحدة هوت ثلاثة مصانع وقضى ما يناهز مئتي رجل! يا لها من كارثة فظيعة!»، والمفارقة هي أن هؤلاء الذين يلقون هذه الخطب هم نفسهم من يسحقون تحت أقدامهم العناكب ويقتلون الكائنات الحية المختلفة، وكأنهم يرغبون في احتكار الهواء والطبيعة لوحدهم!

أجل، إن الصحف تثير اشمئزازي، مثلما الأشياء العابرة، الآيلة للزوال، والأحداث التي تشغل العالم اليوم، ثم تنمحي من ذاكرته في اليوم الموالي، قد أبدو مجرداً من الإحساس إلا أنني لست كذلك، كوني أتعاطف بشكل خاص مع مآسي الشعوب البائدة، تلك المآسي التي ما عاد أحد يتذكرها في زمننا، وبهذا المنطق أيضاً، فإنني لا أشفق على مصير الطبقة العاملة المعاصرة أكثر مما أشفق على عبيد الأزمنة القديمة الذين كانوا يديرون حجر الرحى بلا هوادة، لأنني لا أجد نفسي منتمياً إلى الزمن المعاصر بقدر ما أنتمي إلى الأزمنة القديمة، ولا مواطناً منتمياً إلى فرنسا أكثر من الصين، وفكرة الوطن، أو بالأحرى اضطرارنا إلى العيش في بقعة معينة من الكرة الأرضية، وكرهنا للمناطق الأخرى، فكرة لطالما بدت لي ضيقة ومحدودة، ومن الحماقة بمكان، كوني أشعر بأنني أخ لكل الأحياء، بشراً كانوا أم حيوانات، وصديق جميع المخلوقات التي تسكن فِي النزل المقدس للكون.

إنك تسألينني مجدداً عن رؤيتي للشعر، أنا أظن أنه شبيه بنبات بلا جذور، لأنه ينمو دونما حاجة إلى أن ينثر أحدهم بذوره، والشاعر هو بمثابة عالِم نباتات صبور، يتسلق الجبال ليقطف الأشعار..

الآن بعدما صرحت لك بما يعتمل في صدري، سأحدثك عن رحلتنا، يوم أمس واليوم كذلك قمنا بنزهة رائعة، ورأيت أطلالاً أنا متيم بها منذ صباي، أطلالاً أعرفها معرفة دقيقة، لأنني كثيراً ما زرتها برفقة أولئك الأحباء الذين لم يعودوا معنا، لقد تذكرتهم، كما فكرت في الراحلين الآخرين الذين لم أعرفهم قط، إلا أن قدميَّ وطئتا آثار قبورهم المتهدمة.. أكثر ما أحبه في الأطلال هو تلك النباتات الوحشية

التي تنمو بينها، لتجتاح الطبيعة الآثار الخالدة لعمل إنسان العصور القديمة، إن منظرها يغمرني بفرح عميق وشاسع، ويجعلني أفكر في أن الحياة تنتصر على الموت، حيث إن النباتات تزدهر فوق الجماجم المتحجرة، وعلى الأحجار التي نقش أحدهم عليها حلمه، ليتبدى لنا مبدأ الخلود..

إنه من العذب أن أفكر في أنني بعد مماتي سأساهم في ازدهار أزهار التوليب، من يدري! وإذا ما قاموا بدَفني تحت ظل شجرة ما، فقد تطرح فواكه شهية، إذ ربما سأستحيل سماداً ممتازاً!

أخبرتني أن ذاك الطفل الشقي «فيدياس» قد أعاد إحياء علاقته بتلك السيدة الشقراء؟ وأنه يمضي وقته بالكامل معها، كنت تعيبين عليه جانبه المتردد، الطيع، والقابل للتأثر بأي شخص، إلا أنك اليوم ترغبين في أن أصبح شبيهاً به، كي أرضخ حينما تطلبين مني أن أبقى بالقرب منك، أنت تتعجبين من أنني لا أضعف أمام سطوة حبك، لكنني أؤكد لك أن حبك هو نقطة ضعفي الوحيدة، وإذا كنت لا أستطيع البقاء معك وأعود سريعاً إلى روان، فلقد سبق وتحدثنا عن هذا كثيراً، كل ما في الأمر أنني أود أن أكون دوماً صادقاً معك، وألا أعدك بشيء وأخلف وعدي لك، لأنك لا تستحقين حباً زائفاً أبداً، وأنا مذ قبلتِ جبيني عاهدت نفسي ألا أكذب عليك أو أمنحك وعوداً مخادعة مهما كلف الأمر، إذ إنني أفضل أن أجرحك وجهاً لوجه على أن أطعنك في ظهرك!

أتذكرين نزهتنا الأولى يوم الثلاثين من شهر يوليو المنصرم؟ كانت طفلتك هنرييت نائمة، وكانت أيادينا متشابكة، وكنت ألمح عينيك تلمعان في عتمة الليل، وقتها غمر الدفء قلبي، وأنا أنهل نشوة الحب من مقلتيك،

ترى متى سنلتقي مجدداً؟! من يدري؟ آه لا تتهميني بنسيانك! لا تتهميني أبداً بشيء مماثل! إن اتهامك هذا قاس ومُخْزٍ، أحبيني إلى الأبد، لأنني لم ولن أتوقف عن حبك يوماً!

إلى اللقاء، ألف قبلة.

محبتي اللامنتهية.

* * *

الخميس (27 أغسطس 1846)

أكتب لك على هذه الورقة العادية لأن كل ورق الرسائل الخاص بي يَحُفُّهُ اللون الأسود، وليس في حوزتي ورق رسائل سواه هنا، إلا أنني لا أرغب في أن يكون ما أرسله لك محاطاً بلون الحداد، لأنه يكفي أنني أتسبب لك دونما قصد مني في المعاناة، يا ملاكي، أريد أن أرسل لك كلمات رقيقة تفيض حناناً، كلمات تتماهى مع قبلة عذبة، إن بعض الرجال يسهل عليهم العثور على هذه الكلمات، لكن في حالتي، فإنها تظل حبيسة صدري وتحتضر فوق شفتيّ، فقط لو كان بإمكاني أن أجعلك تستيقظين كل صباح على رسالة مُضمخة بالحب، أو أن أنشد لك ترنيمة فردوسية تشعرك طوال اليوم بنشوة قُدسية، لكنني للأسف صرخت كثيراً في صباي لذا ما عاد بوسعي أن أغني، إذ صار صوتي أجش.

أشكرك على زهرة النارنج التي بعثتها لي، إن رسالتك تفوح بشَذاها، ولا يهم إذا ما كانت قد قطفت من شجيرة، أو أهديت إليك من طرف امرأة أو رجل، لأن هذا لا ينقص من جمالها في نظري، ويكفيني أنك أنت التي أرسلتها إلي، لقد تأثرت بهذه الالتفاتة منك، شأنها شأن كل التفاتاتك الطيبة، إنني أحس تجاهك بعاطفة غامضة، عميقة، وخاصة جداً، ولكن ما يؤرقني هو تفكيري في أنني لا أستحقك، وأن ما يليق بك هو حب يهديه لك رجل جدير بحبك، ومع ذلك، فإنني أبحث باستمرار عن طرق لإثبات

حبي لك، غير أن الدلائل التي تطلبين مني أن أقدمها لك وحدها التي يتعذر علي منحها لك، لأن حياتي مرتبطة بامرأة أخرى (أمي)، وسيستمر الوضع على ما هو عليه طالما ستظل على قيد الحياة، إنني أتماهى مع طحلب بحري تعبث به الريح، وما عاد يربطه بالصخرة التي ينتمي إليها سوى خيط رفيع، وأنا أتساءل: ترى كيف سيكون مصير هذه النبتة المسكينة إذا ما انقطع ذاك الخيط يوماً ما؟ كل ما أعرفه هو أنني سأظل في المكان الذي يختار الرب أن أكون وأبقى فيه..

لقد قرأت هذه الليلة عملك حول السيدة «دو شاتليه»، عمل أثار اهتمامي للغاية، سيما وأنني عثرت فيه على مقاطع رائعة من رسائلها، ها هي ذي امرأة أخرى وقعت في الحب ولم تحظَ بالسعادة، إلا أن هذه لم تكن غلطتها، ولا غلطة السيد «فولتير»، ولا السيد «لامبرت»، بل غلطة الحياة التي لا تمنح شيئاً بسخاء عدا سوء الحظ، أحببت دور «فولتير» في هذا العمل، يا له من رجل لامع وطيب! لا شك في أن ما أقوله يغيظك ولكن هل هناك الكثير من الرجال الذين بمقدورهم التصرف مثله، والتضحية بغطرستهم في سبيل سعادة محبوبتهم بعد أن تغرم برجل آخر؟ سيقول البعض إنه فعل هذا لأنه قد توقف عن حبها، من بإمكانه أن يكون واثقاً من هذا؟ لا أحد، ربما فولتير ذاته ما كان ليعرف هل توقف عن حبها أم لا، ثم إن أولئك الذين نعتقد أننا لم نعد نحبهم نكون في بعض الأحيان لا نزال نشعر تجاههم بعاطفة ما، فالحب لا ينطفئ بشكل مفاجئ، تماماً مثل النار التي يظل الدخان ينبعث من رمادها لمدة طويلة بعدما تخمد، أنا متأكد من أن فولتير أكثر شخص أحزنه رحيل «السيدة دو شاتليه»، وربما لو كان هو الذي توفي قبلها ما كانت لتحزن عليه بالقدر نفسه، لهذا أقول إنه لا

ريب في أن ما كان يعتمل في روح هذا الرجل العبقري هو شيء معقد غاية التعقيد، وددت لو أنك قمت بتحليل موسع لهذه النقطة المهمة بالنسبة إلي، مثلما حللت شخصية السيدة دو شاتليه، وحكيت عن حياتها في «سيريه»، والمراحل المتعاقبة لقصة حب فولتير لها، إن أسلوبك سلس، رصين وقوي جداً، وأنا أهنئك عليه!

أما بالنسبة لقصص الأطفال التي أرسلتها إلي، فإن ابنة شقيقي لن تقرأها بحكم أنها لا تعرف القراءة والكتابة بعد رغم بلوغها السادسة من عمرها، وهذا راجع إلى طريقة التربية الرهيبة التي يمارسها عليها أهلها، أما ابنة شقيقتي فإنها ما زالت صغيرة للغاية، ومع ذلك سأحرص على أن أقرأ لها بعض هذه القصص لاحقاً، كوني أرغب دوماً في أن أمتع الأطفال عبر سرد القصص عليهم، لكنني للأسف لا أملك هذه الموهبة رغم حبي للصغار.

إلى اللقاء، عزيزتي لويز، إلى اللقاء، أفكر فيك طوال الوقت، ففكري بي، ألف ألف قبلة على عينيك الزرقاوين.

محبتي.

* * *

الجمعة (28 أغسطس 1846)

يا ملاكي، لماذا أنت حزينة على الدوام؟ ولـمَ أنت مولعة بالأسى وبإلحاق الأذى بمشاعرك؟، وللأسف أنا بعيد عنك، لذا لا أستطيع أن أمسح الدموع التي تنهمر من عينيك الجميلتين، ليتك فقط ترين الابتسامات التي ترتسم على وجهي في كل مرة أتوصل فيها برسائلك، والفرح الذي يغمرني حينما أفكر فيك وأنا أتأمل صورتك، ثمة العديد من السهول، المروج والهضاب التي تفصلنا عن بعضنا البعض وتُصَعِّبُ علينا اللقاء..وا أسفاه!

لا أفهم كيف عساني أسبب لك كل هذه الأحزان، أنت تخالين أنه هناك امرأة أخرى ما زالت تتربع على عرش قلبي، وأن كل اهتمامي ينصب عليها، لذا تظنين أنني لا أرى فيك سوى طيفها، آه، لا، لا! تأكدي من أنه لا امرأة سواك تشغل بالي وقلبي! أنت تقولين إنني صريح إلى حدٍّ مثير للسخرية، كوني عاقلة، وثقي بأن كل ما أقوله لك صحيح. إن ذكرى حبي التي تؤرقك قد تقادمت، تقادمت للغاية! بل إنني كدت أنساها، لأنني أذكرها بالكاد، أحياناً يخيل إلي أن رجلاً غيري هو الذي عاش تلك التجربة، والآن أنا شخص مختلف لا أفعل شيئاً سوى تأمل الشخص الذي كنت عليه سابقاً، والذي استحال ميتاً بالنسبة إلي، لقد عشت حياتين مختلفتين، وبعض الأحداث الخارجية كانت بمثابة إشارة على نهاية حياتي الأولى وولادتي من جديد، هكذا، انتهت

حياتي الملأى بالنشاط، بالشغف، العواطف الفياضة والارتعاشات والأحاسيس المتناقضة المتعددة، انتهت وأنا في الثانية والعشرين من عمري، في تلك الحقبة، أحرزت تقدماً كبيراً دفعة واحدة في شخصيتي، وبفضل هذا، نجحت في فصل العوامل الخارجية عن الداخلية، وصرت لا أرغب سوى في أن أستمتع بمراقبة العالم الخارجي المتنوع، الملون، المتناغم، والشاسع، أما عالمي الداخلي، فإنني ركزت على جعله غير قابل للاختراق إلا من الومضات الفكرية السامية، التي تنفذ إلي عبر بوابة الذكاء المشرعة، أعلم أن هذه الفكرة ستبدو لك غير واضحة، إذ إنها تحتاج إلى أن يتم شرحها في مجلد كامل. لكنني أؤكد لك أنني لم أزهد في الحياة كما تظنين، فلا زلت أستنشق كالأحياء الآخرين شذى الورود، وأفتح عيني كي أتأمل القمر، ولا أرفض علاقات الصداقة أو الحب، غير أنني أصبحت أميز بوضوح أكبر الفرق بين ما هو زائف وما هو حقيقي، فانقبي في حياتي كما شئت، لن تكتشفي أي أمر يزعجك سواء في ماضيَّ أو في حاضري، أتمنى لو كنت تملكين القدرة لتطلعي على مكنونات قلبي، لتتحول دموع الشك والحزن التي تسكبينها إلى دموع فرح وسعادة، أجل، أنا أحبك، أنا أحبك! هل تسمعين صدى كلماتي هذه أم ينبغي عليَّ أن أصدح بها عالياً؟ لكن إذا كنت عاجزاً عن منحك حباً عادياً زاخراً بالبهجة والبسمات، فهل ذنبي أن الحياة قد حبتني بقلب يبدو في بعض الأحيان مجرداً من الرقة، وقاسياً إلى حدٍّ ما كما يديَّ، إلا أنه في أعماقه قلب طيب وحنون..

إنك تصرين على معاتبتي لأنني لم أزرك مجدداً، كيف لي أن أرد عليك؟! إن عتابك هذا يعذبني ويذكرني بمعاناتك وعذاباتك، آه، فقط

لو كان بإمكاني.. لو.. لو..، يا لهذه الكلمة الرهيبة التي توجعنا وتغمرنا بالأسى على كل ما فاتنا، وكل ما لم نملك القدرة على تحقيقه..

أشعر بالبلاهة هذا المساء، ربما بفعل تأثير البدر المكتمل، قبل قليل قمت بنزهة ليلية وتأملت الأشجار الباسقة التي ترخي بظلالها الفضية المتموجة، وكم تمنيت أن تكوني معي! كنا سنستمتع بوقتنا معاً، وأنا أطوق خصرك، والصمت يخيم علينا.. أتذكر وجهك الأبيض المنير وزرقة عينيك التي تشبه زرقة سماء هذه الليلة، أحبيني إلى الأبد، اعتبريني قاسياً أو مجنوناً أو ما تشائين! ولكن لا تتوقفي عن حبي، بمعزل عن أفكاري التي تزعجك، رغم أنني أعتقد أن هذه الأفكار لا تؤذي أي شخص، بل على العكس تماماً، قد يكون لها تأثير جيد..

أشكرك مجدداً على أزهار النارنج الصغيرة التي ترسلينها إلي، كل رسائلك مُضَمَّخَةٌ بعطرها، إن هذه الأزهار خالية من الأشواك، عكس الأزهار التي تتبرعم في قلبي، عندما سأزورك في باريس، سأحرص على أن أجلب لك أكثر النباتات التي تحبينها كي تزرعيها في حديقتك..

إلى اللقاء، إلى اللقاء..

***

الأحد (30 أغسطس 1846)، الثانية بعد الظهر

يا إلهي! يا لغضبكِ المستعر! ويا لَحِدَّةِ غيظك! ترى ما معنى هذا؟ هل تحبين المشاجرات؟ تبادل الاتهامات، وكل هذه المشادات اليومية المريرة، التي تحيل الحياة جحيماً حقيقياً؟ أنا ما عدت أفهم شيئاً، إنك تشتكين من كلامي القاسي والجارح، مع أنني أعتقد أني لم يسبق وأن وجهت إليك كلاماً مماثلاً أبداً، لكنك ربما ستردين قائلة إنني سبق وكتبت لك بالفعل كلاماً من أقسى ما قيل لك يوماً، لنظل هكذا حَبِيسَيْنِ لأوهامنا!

لقد بدا لي أنه ثمة شيء جديد في رسالتك التي توصلت بها هذا الصباح، وكأنك قررت فجأة أن تصيري متحجرة القلب أو تتظاهري بذلك، ومن يدري قد يكون هذا مجرد محاولة منك أو فلنقل تجربة!؟ إنك تلومينني دونما توقف وتتهمينني بأنني متصنع، درامي، متعجرف، وأنني أستعرض أحزاني كما يتبختر مُدَّع مُتَبَجِّح وهو يستعرض ندوبه، إذ بالنسبة إليك، فإنني أستمتع بإيلامك، وأنا أتظاهر بذرف الدموع كي تتسنى لي رؤية سيل أدمعك، يا لها من فكرة فظيعة!

بربك، كيف لك أن تحبيني إذا ما كنت تعتبرينني شخصاً مثيراً للشفقة إلى هذا الحدّ؟ لا بدّ من أن تحتقريني، أو ربما أنت في الواقع تحتقرينني بالفعل! ولا بدّ من أن الندم قد مَسَّكِ منذ مدة بعدما اكتشفت أنك أخطأت

حينما أحببتني، لذا تلقين اللوم علي لأنني في نظرك الرجل الذي أغواك باتباع أوهام مضللة!

فتذكري إذن أنني منذ البدء حذرتك من هذه العلاقة، وحينما جرفتنا دوامة الشغف، لم أتوقف عن تحريضك على الهرب من هذه القصة قبل فوات الأوان، أكان هذا بدافع كبريائي؟ ألم يكن بمقدوري أن أكذب عليك، أن أتظاهر بأنني عظيم، وأن أخطط للظهور أمامك كرجل رائع وسامٍ؟ ساعتها، لا شك في أنك كنت ستقتنعين بأنني صادق معك! وهكذا، كنت ستعتقدين أنني رجل طيب، لو كنت ببساطة اخترت أن أنافقك!

ولكن ما عساني قائل، وما عساني فاعل لك؟ أحس بالضياع، يلزمني أن أتحلى بجرأة أكبر كي أكتب إليك، بحكم أنني صرت مقتنعاً بأن كل ما أخطه لك يجرحك، وكل اندفاعاتي نحوك جراء ولعي الكبير بك تبدو لك كإساءة، آه يا سيدتي العزيزة، أعترف لك بأنني ما كنت أنتظر أن يحدث كل هذا، ولم أتوقعه رغم حدسي الذي يجعلني أتنبأ بالمحن المستقبلية التي من الممكن أن تعصف بحياتي!

إنك تعتقدين بسبب تخوفك المستمر من انتهاء علاقتنا إثر لحظة انفعال عابر، أن كل ما اختبرناه من عواطف جارفة سيتبخر في رمشة عين، لكنني عكسك، أعتقد أن هذه المخاوف هي التي تعكر صفو حبنا، وتساعد الندم على أن يستبد بنا، لماذا تجعلين هاجسك بالافتراق يطغى على السعادة التي تمنحينني إياها؟، أترين، يبدو لي أنه هنا يتجلى المنطق السليم (الذي ترددين عادة أنني لا أملكه! لكنني أعتقد أنني لست الشخص الذي يفتقده في هذه الحالة!)، وإذا ما كنت (كما تتهمينني) لا أبحث سوى عن الملذات الجسدية، فإنني أؤكد لك أن تصرفاتي ستكون مختلفة تماماً!

هيا يا صديقتي العزيزة، تيقني من أنني لست رجلاً وقحاً مثلما تصفينني، كون حبي لك يفوق عشقي لجسدك الجذاب! أتدرين ما الذي ينقصك، أو بالأحرى ما الذي يجعلك تخطئين؟ إنه تفكيرك! حيث إنك تحللين وتضخمين أموراً لا يلاحظها أحد سواك، في مواضع لا تستدعي ذلك من الأساس، وتأولين كلماتي بطريقتك الخاصة، بحق الشيطان، متى قلت لك جملة مماثلة لهذه: «لم يسبق أن أحببت النساء اللواتي منحنني أجسادهن، وأن النساء اللواتي أحببتهن بالفعل لم ألمسهن قط!»، حسبما أذكر، لقد صارحتك ببساطة بأنني أحببت طوال ست سنوات فتاة لم تعرف شيئاً أبداً عن مشاعري نحوها، والآن يبدو لي أن هذا الحب كان ساذجاً، ثم قررت بعدها ألا أقع في الحب مجدداً إلى أن صادفتك، هذا كل ما في الأمر، أرجوك، لا تظني أنني أنتمي إلى نوعية أولئك الرجال المبتذلين الذين يفقدون اهتمامهم بمجرد تحقيقهم مبتغاهم، لأن شهوانيتهم هي دافعهم الوحيد للتظاهر بالحب، لا، لأنه يستحيل أن تضمحل الأحاسيس التي تنمو بداخلي بهذه السرعة المفرطة، ويستحيل أن يتهاوى صرح حبي الذي شيدته لك في قلبي بين ليلة وضحاها، فتسخرين مني، من حياتي، من معتقداتي الوجودية ومن كبريائي المبالغ فيه كما تشائين!

أنا لا أتظاهر بالغرابة لأنني أرغب في الترفيه عنك أو كي أبدو لك مميزاً! وإذا ما كنت غريب الأطوار فلا بأس! ينبغي أن تكون لديك نزعة إلى الغرابة لتفهمي حقيقة شخصيتي، أنا الرجل الذي يعيش حياة بورجوازية في عزلة عن العالم الخارجي! وحين سأموت لن يستطيع أي شخص أن يدينني بسبب تصرف سيئ أو جملة رديئة! لسبب بسيط هو أنني لا أهتم بالآخرين كما لا أفعل أي شيء لجلب اهتمامهم، لا أفهم ما الذي يبدو

خارجاً عن المألوف في حياتي هذه، لكنني كما سبق وقلت لك، لدي حياة أخرى، حياة سرية، مشرقة ومضيئة، لا يعرف عنها الآخرون شيئاً كوني لا أسمح لهم باختراقها والسخرية منها، هل ما أقوله ضرب من الجنون؟

لا تخشي أن أطلع أيّاً كان على رسائلك، ثقي بي، وحده «دي كامب» يعلم أنني أراسل امرأة باريسية، إنه يراني أكتب لك كل يوم، ولكنه لا يعرف اسمك حتى الآن..

من المؤسف أن فيدياس لم يزرني بعد، إنه رجل رائع وفنان كبير، يشبه في أصالته فناني الإغريق القدامى، كما يروقني أنه لا يشغل باله بأي شيء، لا بالسياسة ولا بالاشتراكية، أو بنظرية الفيلسوف شارل

فورييه، ولا «اليسوعيين»، أو مشاكل الجامعات الفرنسية، إذ يكتفي بالتركيز على أعماله الفنية وإنجازها بكل محبة وإخلاص للفن، فما يهم المبدع فعلاً، هو الحب الخالص للفن، لكنني سأتوقف هنا، لأن كلامي سيزعجك مجدداً، كونك لا تحبين سماعي وأنا أقول إنني أدين للشعراء أكثر بكثير من القديسين والأبطال، لأنه فيما مضى، كان هناك رجال أهم من أولئك الذين كانوا يصلون أو يموتون من أجل وطنهم، هم الرجال الذين كانوا يؤلفون الأشعار، بما أنهم الوحيدون الذين خلدهم التاريخ، وبفضلهم اكتشفنا عوالم جديدة عبر القراءة، واخترعنا الطباعة لتنتشر كتاباتهم، وتصل إلى الأجيال القادمة. إن الفن يتماهى مع نجمة تراقب دوران الأرض دونما انبهار، لأنها تشع في الأفق اللانهائي، ولأن الجمال لا ينفصل أبداً عن القُبَّةِ السماوية.

إلى اللقاء عزيزتي، قبلاتي الرقيقة.

* * *

الأربعاء (2 سبتمبر 1846)، الحادية عشرة مساء

كم كانت رسالتك التي توصلت بها هذا الصباح مفعمة بالرقة، يا صديقتي المسكينة! لقد لمحتُ آثار الدموع التي سكبتِها وأنت تكتبينها، والتي لطخت بعض الكلمات هنا وهناك، إن ألمك يعذبني، وأنا أشعر بحبك الكبير لي النابع من قلبك المعطاء. أعتقد أن نصائح فيدياس ممتازة، لكننا للأسف كثيراً ما نعجز عن اتباع النصائح التي يسديها إلينا الآخرون، فقط لو كان بإمكانك أن تتبعي نصائح فيدياس الطيب، ساعتها كنت ستصيرين مرتاحة وسعيدة أكثر، إن فيدياس رجل حكيم، كونه لا ينتظر من الحياة أن تقدم له مباهج أكثر من تلك التي يحصل عليها، ولهذا فهو واقعي للغاية، كما أنه منظم جداً، إذ مهما حدث فإنه يستمر في إنجاز عمله الفني بقوة وهدوء في الوقت نفسه، ونظير هذا، فإن الفن يكافئه!

إن هذه الأمسية رائعة، وتنضح بالسكون! إنني الآن لا أسمع سوى دقات ساعتي الحائطية وحفيف الأشجار، أما النهر فإن صفحته تتلألأ تحت ضياء القمر، والجُزر البعيدة تلوح مصطبغة بالسواد، والعشب يكتسي لوناً زمردياً، أعلم أنك ترغبين في القدوم إلى هنا يا بطلتي، كم سيكون جميلاً أن أستقبلك هنا ذات ليلة مماثلة لهذه الليلة.. إنني أتخيل وجهك ورقبتك تحت الضوء المنبعث من النجوم الشاحبة، وأرى عينيك تلمعان في الظل الأزرق للقمر.. أتدرين أن مجيئك بعد قطعك لكل تلك المسافة الكبيرة

كي تمضي معي بضع سويعات هنا سيكون شيئاً عظيماً! ولكن لماذا أفكر في احتمالات جنونية وخطيرة! إن هذا مستحيل، ببساطة لأنك إذا أتيت إلى هنا فإن الخبر سينتشر في كل ربوع البلاد في اليوم الموالي، وتؤلف قصص مشينة لا تنتهي حولنا!

عديني بأنك لن تبكي كثيراً حينما سيتجدد لقاؤنا، وبأنك ستكونين عاقلة، إنني بحاجة إلى ابتسامات دافئة كوني أرى حولي الكثير من الدمعات المنسابة بلا هوادة، أتمنى أن أراك في أقرب وقت، بعد أيام قليلة، إنني أخطط لأن نلتقي هذه المرة في مدينة «مانت» لبضع سويعات، لأن ظروفي الحالية لا تسمح لي بالسفر إلى باريس، وعندما سنودع بعضنا البعض هذه المرة، قد أغيب عنك لفترة أطول، لكن علينا أن نتقبل الأمر، ونعتاد عليه كثمن يتحتم علينا دفعه نظير حبنا المستحيل..

سنستمر في الكتابة إلى بعضنا البعض، وسيفكر كلانا في الآخر، وستعاهدينني بأنك لن تتوقفي عن الكتابة، وستحرصين على تأليف تحفة أدبية ستكتبينها بكل جوارحك. أحبي الفن أكثر مما تحبينني، لأنها وحدها هذه المحبة لن تخذلك أبداً، ولن ينال منها التعب ولا الموت! قدسي الأفكار الإبداعية، وثقي بأنها حقيقية لأنها خالدة! إننا الآن نعشق بعضنا، ومن الوارد أن يكبر عشقنا أكثر فأكثر، لكن من يدري؟ فقد يأتي زمن يعجز فيه كل منا عن تذكر ملامح وجه الآخر، خبريني، هل سبق وأن حكى لك أحد العجائز حكاية تعود إلى فترة شبابه؟ قبل بضعة أشهر، حكى لي شيخ أعرفه حكاية طويلة عن قصة حب عظيمة دامت لما يناهز العشرين سنة، وبعد افتراقه عن معشوقته، ظل طوال سبع سنوات مواظباً على التسلل من منزله فجر كل يوم، ليقطع مسافة كبيرة سيراً على الأقدام، كي يقصد

مكتب البريد ويتأكد مما لو كان قد توصل بأية رسائل من معشوقته السابقة، وبالفعل، كان يتوصل بين الفينة والأخرى برسائل غير منتظمة حينما كانت تجد حبيبته فرصة لتكتب إليه، وهكذا كان يعود إلى منزله أحياناً وهو يحمل رسالته/ غنيمته الغالية، لكنه في أغلب الأحيان كان يعود صفر اليدين. وطيلة هذه السنوات، لم يلتقيا إلا مرة واحدة، وبعدها ما عادا يلتقيان أبداً! وشيئاً فشيئاً انقطعت المراسلات بينهما إلى أن نسي كل منهما الآخر! ثم توفيت تلك السيدة، ليعيش حبيبها السابق قصص حب جديدة، هذه هي الحياة! إنه الآن يحكي هذه القصة ببساطة شديدة، وبالفعل إن هذه القصة بسيطة واعتيادية! كون أقوى الروابط تتفكك بفعل الزمن! لأن حبل الود يبلى تدريجياً، وكل شيء يمرّ ويمضي، وتنمحي الذكريات من القلوب، مثلما تتجدد مياه البحار، ويمحو الموج آثار الخطى على الرمال..

إن النسيان أمر محبط، ولكن مع ذلك يلزمنا أن نشكر الرب الذي يمنحنا إياه لأنه يعلم أن الذاكرة البشرية لا يسعها أن تحتفظ بهذا الكمّ الهائل من الذكريات، وتراكمها فوق بعضها البعض يوماً بعد يوم، ثم إن كل ألم يعترينا يزيح آلامنا السابقة، فمن ذا الذي يشعر بلسعات البرد إذا ما استبدت به أوجاع ضرسه؟ والحكمة، كل الحكمة تكمن في اختيارنا للألم الأخف ضرراً! ولكن تأكدي من أنني لم أنسك بعد، لم يحن الوقت لذلك، ربما سنتذكر هذه الكلمات إذا ما بلغنا نقطة نهاية قصتنا ذات يوم.. لذا لا تُحزني نفسك بالتفكير في احتمال افتراقنا حالياً، وفكري بالأحرى في أنني أعشقك، انغمسي في هذه الفكرة، واملئي قلبك بها لتغمريه بالدفء..

إلى اللقاء يا محبوبتي الغالية، ألف قبلة على عينيك الحنونتين، أخبريني رجاء إذا ما كانت فكرة لقائنا في «مانت» تروقك، إذا كان الأمر كذلك، فإننا

سنلتقي حتماً بعد ثلاثة أو أربعة أيام، لست متأكداً بعد.. إلا أنني سأعلمك قبل وقت كاف، فليكن الحظ حليفنا، لأنني آخذ حذري دوماً من تقلباته..

إلى اللقاء، المخلص لك..

* * *

السبت (5 سبتمبر 1846)، الخامسة مساء

تتملكني رغبة مغرية في العراك عندما أتلقى رسائلك، هل تعرفين تأثيرها علي؟ إنها تجعلني أكره نفسي. إذن، أنت تريدينني أن أحتقر نفسي، لأنك تستمتعين دوماً بالتقليل من شأني ووضعي باستمرار في مقارنة غير عادلة معك؟ حسنًا، فليكن، احتقريني، وتجبري علي، وقولي كذباً إنني لا أحبك، قولي ما تشائين، فأنا على استعداد لأن أتلقى منك أي شيء، أي شيء، أيّاً كان، أترين؟ يمكنك أن تفعلي أي شيء، لن يثير ذلك غضبي، لأنني أعلم علم اليقين أنك طيبة، جميلة، رقيقة، ذكية، ومخلصة. ولكنك تحاولين أن تثبتي لي أنني لست مثلك، قد تكونين على حق، لأنني في الواقع لا أقوم بأي شيء لأظهر لك حقيقتي. لقد كنت أتوقع أنك ستجودين علي بقبلة من أجل الفكرة التي خطرت ببالي بخصوص لقائنا في مانت! وها أنت توبخينني مسبقاً لأنه لن يكون بمستطاعنا أن نمضي بها وقتاً طويلاً، وماذا لو لم تخطر ببالي هذه الفكرة، ولو لم تتح لنا هذه الفرصة، ماذا كنت ستقولين ساعتها؟ لا يهم! أنا تائه، أبحث في كل مكان عن حل يرضيك دون أن أعثر على أي شيء، رغم أنك تعلمين أن الذنب ليس ذنبي! لأن كل الظروف ضدي. إنك تلومينني على كل ما أكتبه، على كل أفكاري، حتى تلك التي لا تمت بصلة لعلاقتنا نحن الاثنين، قولي ما شئت، فيما يخصني أنا أحب كتاباتك، اكتبي أي شيء، فأنا أحب الخطوط

التي حبرتها أناملك، والورقة التي انحنيت عليها والتي ربما لامست أطراف شعرك العطرة وأنت تكتبين، أرسلي لي ما تريدين، وتأكدي من أنني لن أنزعج منك، بل من المستحيل أن يحدث هذا أبداً! أشعر أن روحك تصهرها نار المعاناة، لكنني لن أتحدث عن هذا الآن. هل ظننتِ أنك نلتِ من غروري وأنك أصبتني في مقتل بقولك لي: «إن عائلتكَ تقوم بحراستكَ حراسة مشددة كما لو كنتَ فتاة صغيرة»، ربما لو كان أحدهم قد وجّه لي هذه الجملة قبل خمس أو ست سنوات لكُنتُ أقدمت حينها على حماقة فظيعة، لا ريب في ذلك، بل ربما كنت سأقدم على وضع حدٍّ لحياتي لأمحو آثار الجروح التي خلفتها تلك الكلمات في روحي. لكن بعدما وجهتها لي أنت لم أشعر أبداً بالإهانة، هل تعتقدين أنه لن يكون من الرائع بالنسبة إلي كرجل أن أستقبلك هنا؟ ما الذي سأخاطر به يا ترى؟ لا شيء، لا شيء على الإطلاق! مكتبة سُر مَن قرأ

ستلاحظ والدتي حبنا لبعضنا ومع ذلك قد تتظاهر بأنها لم تشعر بشيء، أنا أعرفها جيداً، ومن الوارد أنها ستغار علي منك (عندما تبلغ ابنتك الثامنة عشرة، ستعلمين أنه من الوارد أن تغاري عليها وربما ستكرهين زوجها: إنها القاعدة)، لكن هذا كل شيء، لقد طلبت منك ألا تأتي، من أجل اسمك، من أجل شرفك، حتى لا يزعجك أي كان بمزحاته المبتذلة، حتى لا تحمري خجلاً أمام الحراس وحتى لا يسخر منك أي خادم من خدمنا! لكنك لم تفهمي قصدي، لم تفهمي أي شيء! وها أنت تتهكمين علي! رجاء لنكف عن الخوض في هذا الموضوع!

فلنتحدث بالأحرى عن الأربعاء المقبل، إنني أتحرق شوقاً إلى رؤيتك، لماذا تخبرينني أنك ستكونين حزينة عند لقائنا؟ لماذا تفترضين دوماً أن كل

ما سنعيشه مستقبلاً سيكون موسوماً بالمعاناة؟ وكأنك لا تعانين بما يكفي في الحاضر؟

قصتك عن غانية «شاتو روج» أثرت فيّ كثيراً، حسناً فعلتِ عندما قصصتِها علي، لكن ليس بوسعي أن أحكم عليها، إنها غريبة وفريدة من نوعها، لقد كنت أحلم بشخصية مثلها منذ فترة، كنت أود أن أقابل هذه المرأة، إنها موضوع مغر بالبحث بغرض الكتابة، لقد عكفتُ مطولاً على هذه المواضيع لذا أنصحك بأن تستقبليها مرة أخرى لتري ما إذا كانت شكوكك في محلها أو لا، يلزمك فقط أن تكوني على استعداد، لا بدّ من أن تحاولي لقاءها مجدداً.

قد يكون في جعبتها بعض الأشياء الرائعة، كما قد تصدمنا ببعض المفاجآت الكريهة، من يدري؟ لكن لمَ التوجس من الرذيلة؟ ماذا نعرف عن هذه المرأة؟ إنني أبحث فيما وراء المظاهر الخلابة عن الأعماق الشائنة، وأعمل على اكتشاف مناجم الإخلاص والفضيلة المطمورة تحت الواجهات الدنيئة، إنه هوس جيد إلى حدٍّ ما، كونه يجعل المصاب به يكتشف شيئاً جديداً في مكان ما كان ليشك في أنه يخفي أسراراً مماثلة! لمَ لا تكون هذه المرأة، التي أرادت أن تتقرب منك وأن تدخل حياتك تحمل لك محبة صادقة ومشاعر مخلصة؟ ومن قال لك إنها لم تُرسل عمداً من القدر لتقدم لك بعض التضحيات التي ستحتاجينها؟ ربما ستحبك هذه المرأة أكثر من كل النساء اللواتي عرفتهن على الإطلاق. أتدرين أن جميع العاهرات في إيطاليا، يضعن فوق أسرتهن تمثالاً للسيدة العذراء، ويضئن لها الشموع ليل نهار، إن البرجوازي الفظ لا يرى في هذا إلا شعوذة سخيفة، وهذا دليل على أن البرجوازي غبي لا يفقه شيئاً في الروح البشرية، في

نظري ليس في ذلك شعوذة، ولا فسق، ولا خداع، على العكس من ذلك، إن هذا يؤثر فيَّ، إذ أجده شيئاً سامياً، وكم من القلوب تتماهى مع هذه البيوت، بقناديلها المباركة التي تحترق لتنير شعلتها بضيائها الطاهر الزناة المدنسين بالخطيئة.

ستتحدث عن كل هذا يوم الأربعاء. لا، صديقي دو كامب لن يبقى معنا في مانت، بل سيكمل طريقه إلى باريس، يمكننا الاستغناء عنه، ألا نستغني (أنا وأنت) عن العالم بأسره عندما نكون وحدنا؟

ألف قبلة، نعم ألف قبلة، في كل مكان خصوصاً عينيك اللتين تلهبني ذكراهما.

* * *

الأحد (6 سبتمبر 1846)، الحادية عشرة مساء

لم يتبق سوى يومين ليتجدد لقاؤنا مرة أخرى، عندما ستتوصلين بهذه الرسالة، سيكون أمامك يوم واحد فقط قبل أن تتلقي قبلة من الشخص الذي تحبينه ويحبك، هل تتلذذين مثلي بعذوبة هذه الفكرة؟ وهل تستنشقينها بابتهاج كزهرة نادرة تنثر أريجها الغامض ليملأ أنوفنا؟ آه! سنكون وحدنا، منفردين ببعضنا وسط الريف (وحده الصمت سَيَلُفُّنا هناك)، لماذا أنت حزينة؟ مع أنه لدي شعور مسبق بأننا سنقضي يوماً مترعاً بالسعادة، لعلك تفكرين في أن يوماً واحداً لا يكفي، أليس كذلك؟ بَيْدَ أن يوماً جميلاً بوسعه أن ينير سنة بأكملها، وفي كافة الأحوال نحن لا نملك سوى أيام سعيدة قليلة لنعيشها، لذا حينما سيحل هذا اليوم البهيج فإنه يستحق أن نحتفي به. لكن هل ستكونين عاقلة؟ أم ستبكين مرة أخرى؟ (أوه! لو كنت رجلاً حسيّاً كما تظنين، لكم كنت سأحب دموعك! إنها تجعلك جميلة للغاية عندما تنساب على خديك الشاحبين وتتلاشى فوق عنقك الأبيض الدافئ!) هل ستستمرين في حذرك الحكيم من التعاسة؟ وهل ستستمرين في لومي دائماً لأنني أقصم ظهري لأجنبك العذاب ولو على حساب متعتي؟ إذا كانت هناك أية بطولة، فستكون على هذا النحو، كوني متيقنة من ذلك، وربما يكلف هذا أرواحنا ثمناً باهظاً أكثر مما نظن، ولكن واأسفاه، إذ بحسب العرف البشري فإن ما نبذله من أجل

الآخرين يكاد ألا يؤخذ في الحسبان، أجل حبيبتي، فكري في هذا الأمر، واستحضري كل عقلك، أمعني التفكير في ما أقوله لك، ووقتئذ ستعترفين في قرارة نفسك، بعدما تتبدى لك الحقيقة في غمرة الحلم، أنني عكس ما تعتقدين، يستحيل أن أتخلى عن حبي لك، ببساطة لأنني متيم بك، وعندما ستصيخين السمع إلى نبضات قلبي، ستجدينها دليلاً على العاطفة التي أحسها تجاهك، كتعويض عما اختبرتِه سابقاً من فتور ودمار.

هيا، اضحكي، فكما يقول فيدياس: «غداً سنحيا بجنون مثل السكارى!»، غداً يومنا، أنت وأنا، غداً سأرى مرة أخرى النار الهادئة التي تنبعث من عينيك، وسأستمد الحياة من أنفاس صدرك العميقة، وأنا أستنشق بشغف كتفك العاري.

يبدو لي أن الجو سيكون جميلاً هناك، وأن الشمس ستكون ساطعة في كبد السماء. إن تفكيرك المستمر بي هو بمثابة فتحة أمل صغيرة يتسلل إلي منها القليل من الهواء والضوء، أتعتقدين أنني لن أرتمي في حضنك عندما تسنح لي الفرصة، لأشعر بأنني على قيد الحياة، آه لو تعلمين أن كل شيء من حولي مغمور بالحزن والظلام، ووالدتي في حالة مثيرة للخوف والهلع، لم أرَها مكتئبة بهذا الشكل من قبل! لا، لم تختبر مثل هذه الآلام يوماً، أبداً، صدقيني. فلتحفظها السماء من هذه الآلام الضارية! وإذا كان لا بدّ من أن تتوجعي يوماً، أتمنى أن تمنحك الأقدار آلاماً مختلفة عما تقاسيه أم الآلام، أمي البائسة!

إنني أفكر في غانية شاتو روج، لماذا ترفضينها رغماً عن الانجذاب الذي نشعر به تجاه حكايتها؟ ربما تعرضت هذه المرأة لجروح فظيعة. إذا كانت الأرواح تسافر وتتجدد في برزخ ما قبل الانبعاث، فمن يدري إذا ما

كنت قد التقيتها في حياة أخرى وأحببتِ روحها السابقة لكن بشكل آخر؟ أليست الاندفاعات المفاجئة التي تغمرنا هي مجرد ذكريات لعواطف عشناها في حياة سابقة، اندفاعات ترجنا بعنف، وقد تبدو لنا أحياناً غامضة رغم أنها من منبع قُدسي؟ في النهاية، حتى لو كانت كما خمن مسؤول السلطة الذي تحدث معك حولها، فما الضرر من ذلك؟ عموماً أنت لست مجبرة على قبولها، ولكن اسمحي لها بأن تحبك إذا كان ذلك سيجعلها سعيدة، فعندما لا نستطيع أن نتصرف برقة وحنان، علينا أن نتجنب قدر المستطاع أن نكون قساة. إنها الفكرة نفسها التي تكمن في جوهر الأشكال المختلفة التي تعجبنا أو تثير اشمئزازنا، تحفزنا أو تصدمنا وتنفرنا. هكذا عند شروق الشمس، قد يلمع الروث تحت أشعتها بقدر ما يتلألأ الندى الذي يبلل الورود والأرض، وربما تكون قصص الحب عند القرود والذئاب ملأى بالمرثيات الرائعة والمُثل العليا إلى درجة تبدو معها قصص مشاعرنا الإنسانية باهتة؟ صديقتي، إن البريق المضيء الذي يغمرني الآن من القمر يتماهى مع اللهب الذي سَأقْدَحُهُ لاحقاً من علبة الكبريت كي أشعل غليوني، أترين، إنه النور نفسه في كل مكان، متماثل ومتطابق، على الرغم من أن أحدهما ينبعث من مكان بعيد من خلال طبقات سماوية مجهولة أبدعها الخالق، أما الآخر فإنه يُقدح من يدي بحركة بسيطة، لكن أليس هذا كله نوراً بمعزل عن الاختلافات؟

وداعاً حبيبتي الغالية، لنحلم هذه الليلة، غداً سنكون معاً. قبلاتي الحارة.

استقلي القطار الذي سيغادر محطة باريس في تمام الساعة التاسعة صباحاً، وأنا سأغادر روان في ذات التوقيت.

* * *

الخميس (10 سبتمبر 1846)، الحادية عشرة مساء

هل رأيتِ كيف كنت أرنو إليك عندما حل موعد افتراقنا، لقد تأخرتُ في المحطة بعدما ودعتني ووليتني ظهرك، لأظل أراقبك وأنت تمضين في طريقك إلى أن غبت عن ناظري، للحظة، انتابتني الرغبة في تقبيلك، إلا أنني لم أرغب في جعل فراقنا المرير أكثر صعوبة..

أتعلمين أن لقاءنا هذه المرة هو الأجمل على الإطلاق! إذ إننا شربنا حتى الثمالة من كأس مترعة بالحب والنشوة! آه، إنني لا أشعر بالتعب هذا المساء، رغم أنني لم أنم سوى ثلاث ساعات، بل إنني أحس بالقوة والنضارة تتدفقان مني مذ التقينا..

ألفتُ قصة صغيرة لأبرر غيابي، وقد صدقتها أمي، مع أن هذه المرأة المسكينة كانت قلقة للغاية أمس، إذ إن النوم جافاها طوال الليلة التي غبت فيها، وعذبتها الظنون، لذا قدمتْ إلى محطة القطار على الساعة الحادية عشرة صباحاً لتنتظرني، وما إن وصلتُ حتى وجدتها على الرصيف وهي في حالة قلق بالغ! صحيح أنها لم تعاتبني، ولكن وجهها كان يشي بالآلام التي تسببتُ لها فيها، أتدرين أن أمي قد أصيبت بخوف مرضي من الفقد بعدما فقدت على التوالي خلال أشهر قليلة أبي وشقيقتي..

آه، كم يبدو لي لقاؤنا في مانت بعيداً! إنني أشعر بالفخر لأنك أخبرتني بأنك لم يسبق أن عشت سعادة مماثلة! وبالفعل، كم كانت السويعات التي أمضيناها معاً زاخرة بالسعادة! ترى متى سيتجدد لقاؤنا؟

أتوسل إليك، لا تتهميني مجدداً بأنني لا أسعى للقائك إلا لماماً، إنك لا تتصورين كم يجرحني ويعذبني اتهامك هذا، أؤكد لك أن هذا ليس خطئي، بل خطأ الظروف المحيطة بي، لذا فأنا لا يسعني أن أعثر على ظروف مناسبة لنلتقي عما قريب، يلزمنا أن نرضخ مسبقاً للأمر الواقع، أرجو أن تتقبلي هذا الأمر.. أتدرين، ربما هكذا سيدوم عمر قصة حبنا أكثر، كون حماسنا لن يفتر لأن جمرة شوقنا ستظل مُتَّقِدَةً..

لقد كان لقاؤنا رائعاً، ولا شيء عكر صفوه، أليس كذلك؟ لم أقل لك أي كلام يزعجك، وبدورك لم تكيلي لي اتهامات جارحة، يا لها من ذكرى خلابة ستبقى خالدة في عقلي وروحي لوقت طويل!

إلى اللقاء يا جميلتي، استعيدي ما عشناه معاً خلال لقائنا.. أعدتُ قراءة أبياتك، أشكرك على هذا التذكار الغالي الذي لا أملك سواه الآن، إلى اللقاء، أحبيني بلا توقف ولا تتهميني أبداً! وتيقني من أنك مهما فعلتِ فإنني سأسامحك دوماً. سأعود إليك حتماً، أشعر بأن شيئاً مبهماً يشدني إليك، راقني قولك لي: «حتى إذا ما افترقنا يوماً ما، فإن كل شخص منا سيحتفظ بذكرى طيبة عن الآخر»، أجل، إنك محقة. إلى اللقاء أيتها الغالية، المخلص لك جسداً وروحاً.

* * *

مساء السبت (12 سبتمبر 1846)

لا زلتُ تحت تأثير سحر لقائنا الأخير، بل إنني أكاد ألا أصدق ما عشناه معاً من لحظات لا تنسى، كم كنا يافعين وسعيدين حدّ الجنون! كم هي نادرة الأيام المماثلة في الحياة بأسرها! لا بدّ من أنك تشعرين بنفس ما أشعر به، في رسالتك هذا الصباح، قلت لي إنك ستحملين تجاهي دوماً عواطف صادقة، أنت بدورك تفكرين بلا ريب في أن الحب يتماهى مع كل القطع الموسيقية: السيمفونيات، الأغنيات الشعبية، والمقطوعات الرومانسية، إذ إن للحب ذاتُ مراحل القطع الموسيقية: يبدأ ببطء معتدل، ثم يستحيل موسيقى مرحة، وبعدها يصل إلى النوتة الأخيرة.. إذن أنت أيضاً قمت بسبر أغوار الهاوية، واطلعت على عمقها رغم أنك في البداية كنت تخالين كلامي عن هاويات الحب العميقة مجرد خيالات رجل بائس، أتعلمين أن التوقع المستقبلي لنهاية رابطة متينة كرابطتنا هي خطوة ذكية وجيدة، مع أنني أشك في أنه قد يأتي يوم تنتهي فيه قصة حبنا.

منذ لقائنا الأخير، أحسست بأنني أحبك بطريقة مختلفة، ويهيأ لي أننا ارتبطنا برباط أشدّ متانة، وأكثر حميمية، وأن ارتباطنا لن يتأثر بأية عوامل خارجية حتى إذا ما تعذرت علينا سبل اللقاء لمدة طويلة، لأنه أخيراً صار حبنا أكثر جدية (أتشاطرينني الرأي؟)، أتودين أن تعرفي السبب؟ ببساطة

لأننا كنا صادقين مع بعضنا، وتركنا طبيعتنا الحقيقية تقودنا دونما تنميق، ودون أن نخضع لتشويش أفكارنا ومخاوفنا..

ومع أنني عدت من لقائنا مغموراً بدفء رائع، وغصت في أحلام ممتعة، أحسست أمس واليوم بحزن فظيع، حزن يشبه الأحزان التي كانت تستبد بي في صباي، إلى درجة أنني كنت أفكر أحياناً في إلقاء نفسي من النافذة للانعتاق من ثقلها، ربما تجتاحنا هذه الأحزان لأننا نتمنى الحصول على كل ما لا نملكه، ورغم ذلك ما إن نحوز ما نتمناه حتى نصاب بِهَوَسِ التخلص منه، أو ربما نرغب في أن نصبح مارقين، رهباناً، أو قراصنة، أو أي شيء آخر بوسعه أن ينقذنا من محيطنا الرهيب الذي يصيبنا بالاختناق. أجل، إنني أشعر بالضجر منذ ثمان وأربعين ساعة، من الوارد أن هذا ردّ فعل عكسي على السعادة التي عشتها معك في ذلك اليوم، وكأنه علينا أن ندفع دوماً ثمناً باهظاً نظير لحظات السعادة، هذا الثمن هو الآلام التي تنهش أرواحنا بلا هوادة، ولذا لا أعتقد أنني مخطئ كوني قلما أبحث عن لحظات سعيدة. إن السعادة هي متعة عابرة بوسعها أن تخرب حياتنا!

رغماً عن الضجر، أجبرت نفسي هذا المساء على العودة إلى الكتابة، لقد مرت ستة أسابيع على تعارفنا، ومذ ذاك لم أكتب أي شيء! لكن يتوجب علي ألا أستسلم للكسل، فلنكتب، ونشتغل ونقدم أفضل ما لدينا، وبعدها، سنلتقي بين الفينة والأخرى، حينما تسنح لنا الفرصة لذلك، لنأخذ جرعة من الهواء النقي ونجدد منابع إلهامنا، ومن يدري، قد تكون هذه أنجع طريقة لنشتغل ونحب بعضنا كما ينبغي، إذ ربما لو كنا نعيش مع بعضنا كان سيصيب الفتور والملل علاقتنا، كما قد نحيا في ظلال الشك والغيرة والخلافات، لينتهي بنا المطاف ونحن مستمران مع بعضنا بدافع العناد أو

بحكم الاعتياد، لا بسبب الانجذاب الذي نحسه تجاه بعضنا حالياً، مع أنني لا أظن أن يحدث هذا، لأنك امرأة طيبة، رقيقة وجد مخلصة، عكس النساء الأخريات اللواتي أجدهن أنانيات للغاية، لذا يرغبن في الاستحواذ على الرجال الذين يحبونهن.

أعلم أنك تحبينني كثيراً، وأنت متيقنة من أنني أحبك وسأظل على قيد حبك طويلاً، هل ما عدتِ تشكين فيّ؟ يا عزيزتي لويز، أنا لا أستطيع أن أعدك أو أتعهد لك بأي شيء، لأنني أحرص على أن نظل نحن الاثنين ننعم بحريتنا الشخصية.

آه يا حبيبتي المسكينة، إنك تطلبين مني في حالة ما إذا لم تعودي تثيرين إعجابي ألا أشعرك بذلك بطريقة قاسية، ليتك تعلمين كم تأثرتُ بقولك هذا، على العكس، أعتقد أنني صرت معجباً بك أكثر.

إلى اللقاء حبيبتي، أقبّل شفتيك الكرزيتين.

* * *

مساء الأحد (13 سبتمبر 1846)

أنا حزين، وأشعر بالضجر وبضيق فظيع، وكأنني عدت إلى الحالة التي كنت عليها قبل عامين، عندما أصبت بحساسية مفرطة، إذ إن كل شيء يوجعني ويمزقني داخلياً.

إن رسالتيك الأخيرتين تسببتا لي في خفقان كاد أن يمزق نياط قلبي، وأنا أفتحهما، تصاعد عطرك إلى أنفي واخترقت قلبي جُملك الحانية، فارفقي بي، إن حبك يصيبني بالدوار! رغم حبنا الكبير علينا أن نقنع أنفسنا بأنه يستحيل أن نعيش معاً، لذا يتحتم علينا أن نرضى بعَيش علاقة في الظل! لا شك في أنني أرغب في رؤيتك باستمرار، وأن يُشعرك حضوري بالدفء بدل أن يحرقك غيابي، وأن أتمكن من مواساتك بدل التسبب في يأسك، ومع ذلك، ما الذي بمستطاعنا أن نفعله؟ علينا ألا نستسلم لتشنجات أرواحنا كي لا نقود أنفسنا إلى الهلاك. فاكتبي، واشغلي تفكيرك بشيء آخر، استغلي ذكاءك الحاد في الإبداع، علَّك تجدين السلام النفسي الذي تنشدينه، بالنسبة إلي، فإن قواي قد خارت، ربما هذا راجع إلى أنني أحترف مواساة الجميع، إلى حدٍّ يجعلني محطماً، لذا أرجوك، لا تجرحيني بانفعالاتك التي تجعلني ألعن نفسي، سيّما وأنني لا أملك حلاً سحرياً لظروفي القاهرة.

أمس، دخلت أمي إلى غرفتي، كنت حينها أحلق ذقني، بينما كانت

هي تحمل ابنة شقيقتي بين ذراعيها، ثم جلب الخادم رسالتك، فالتقطَتْها ونظرت إلى الظرف، وقالت وهي نصف جادة/ نصف ساخرة، وكأنها توجه كلامها إلى الطفلة لا إلي: «كم أرغب في الاطلاع على محتوى هذه الرسالة!»، أجبتها بضحكة خرقاء كنت أود أن أجعلها تبدو كوميدية، كي تقلع عن فكرتها، صدقاً لا أدري إذا ما كانت أمي تشك في أمرنا، ربما تساورها الشكوك بالفعل، ومن الوارد أن قدوم ساعي البريد بشكل منتظم أثار ريبتها.

إنك تبالغين في تصوراتك حول الأشخاص المحيطين بي، وعندما تقارنين وحدتك بوحدتي، آه، لا، أنا الأكثر وحدة، لطالما كنت وحيداً للغاية، ألم تلاحظي يوم لقائنا في مانت أنني كنت شارد الذهن، وقتها هتفتِ: «يا له من طبع غريب! ترى ما الذي يشغل بالك؟»، صدقيني أنا لا أعلم ما الذي يعتريني في لحظات شرودي، ولكن بوسعي أن أعترف لك بأن هذا الشرود الذي لاحظتِه في لقاءاتنا النادرة هو بالنسبة إلي حالة اعتيادية أتعايش معها. وحينما أدخل في هذه الحالة، أفقد الإحساس بأي شخص من حولي، ولا أحدّد الزمان أو المكان الذي أتواجد به، وأصير لا منتمياً إلى العالم بأسره، ومهما كنت محاطاً بالناس، أشعر بأنني وحيد، هكذا فإن حتى الأشخاص الذين غيبهم الموت لم يتسببوا في تضخيم شعوري بالوحدة، كوني وحيداً دوماً في أعماقي. أحياناً أتساءل: ماذا لدي هنا؟ قلة من الأشخاص الذين يحبونني، على رأسهم أمي، لكن الحب وحده لا يكفي، والحياة لا تُغْدِقُ علينا حنانها باستمرار، لأن ما يضفي على الأيام رونقاً خاصاً، هو التدفق الحر للأفكار المشتركة، وكذا بوحنا لبعضنا البعض برغباتنا وأحلامنا، وكل ما يعبر ذهننا بحُرية، ولكن هل هناك على

هذه الأرض الكثير من الأحياء الذين يتشاركون الرأي نفسه حول أبسط الأمور؟ بالتأكيد لا، فما بالك بالمجال الإبداعي والفكري السامي؟ لقد سبق أن توصلتُ إلى حقيقة بديهية كتبتها قبل أشهر: «إن الأشخاص الذين نحبهم كثيراً هم أنفسهم الذين يتسببون لنا في أكبر قدر من المعاناة!»، فتأملي قولي هذا وسترين أن روحي ليست مرحة كما تظنين..

يلزمني أن أوبخك بسبب عدم اهتمامك حالياً بالفن، إن هذا تصرف صادم في نظري، ربما إذا توقفتِ عن الاهتمام بالمجد كنت سأؤيدك، ولكن ألا تكترثي للفن، الشيء الوحيد الجيد والحقيقي في هذه الحياة!؟ هل بوسعك أن تقارني محبة الفن بحبٍّ دُنيوي فانٍ؟ وهل بوسعك أن تفضلي عشق الجمال البشري النسبي على العقيدة الجمالية الحقيقية؟ فيما يخصني، أجد أن أكثر ما يبعثني على احترام ذاتي هو حبي وتقديسي للفن، في حين أنك تخلطين علم الجمال بالعديد من الأشياء الدخيلة، فاطلبي من صديقك الفيلسوف فيكتور كوزان أن يفسر لك فكرة الجمال الخالص، مثلما شرحها في محاضرته سنة 1819، وسنتحدث عن رؤيتي الخاصة للفن والجمال في لقائنا القادم.

أقرأ حالياً دراما «ساكونتالا» الهندية، كما أدرس اللغة اليونانية، لكنني ما زلت أجد صعوبة في إتقانها، لأن طيفكِ المرتسم في عيني يقف دوماً كحاجز بيني وبين كتاب تعلم اللغة اليونانية.

إلى اللقاء غاليتي، كوني عاقلة، ألف قبلة وألف عناق يفيض حناناً..

* * *

الإثنين (14 سبتمبر 1846)، العاشرة مساء

أمس، أمضيت يوماً قاتماً جداً، إذ لم يأت شقيقي، أعتقد أنه بدأ يسأم منا، الشيء الذي لا يفاجئني. قد يكون محقاً لأنه قرر أن يتركنا مسربلين بالوحدة، ربما يخشى أن يصاب بعدوى الأسى التي جعلت كل أفراد منزلنا يتماهون مع المصابين بالطاعون، لذا استحال منزلنا فارغاً من الضيوف، مثلما يتساقط الأحبة من قلوب بعضهم البعض. إن الذين نحبهم يغادروننا تباعاً، ونحن لا نرغب في أن نُسَلِّمَ بأن مغادرتهم هذه أبدية، ومع ذلك فإنهم لا يعودون أبداً!

كم يصير كل شيء خالياً وموحشاً في وقت وجيز! وكم من الأماكن تخلى عنها أحياء ما عاد بمستطاعنا أن نراهم مرة أخرى!

أنت روحك مرحة، ووحدها العوامل الخارجية تؤثر فيك، كونك لا تشعرين مثلي بنوبات الضجر التي تجعلني أتمنى الموت! وما من مكان في داخلك لعَناء الحياة ومضايقاتها! وعندما تحزنين، لا يطوقك اليأس ولا تستبد بك المأساوية، فيما يخصني، فإن الحزن بالنسبة إلي ترف! كوني عانيت إلى حدٍّ كبير ولم أكسب شيئاً عدا المرض العصبي الذي صارعته طيلة عامين، وإلى اليوم لم أشفَ منه نهائياً، رغم مظهري الخارجي الذي يوحي بأنني أرفل في ثوب الصحة والقوة، ولكن أعترف أني مذ التقيتك تحسنت كما لم أتحسن من قبل، لأنك بالنسبة إلي بمثابة

طبيب معالج، وهل ثمة ترياق أفضل من ذاك الذي أرشفه من شفتيك؟ حدثيني عن صحتك لأنني قلق بشأنها، وأتمنى أن تمنحيني تفاصيل أكثر عن حالتك، إن بالي منشغل بأُوجاع الكلى التي أخبرتني عنها، لا بدّ من أن تهتمي بصحتك، وألا تسهري كثيراً، والأهم أن تعتني بصحتك النفسية ومزاجك لأنهما يلعبان دوراً أساسياً في شفاء العلل الجسدية.

إن ذكرى لقائنا في مانت تبدو لي كانعكاسات غروب الشمس على سطح الجليد، الجليد الذي يشبه حياتي بدونك، أما الشمس التي تسطع فوقه فهي ذكراك/ انعكاسك الذي يضيئه بشعلات منيرة..

توصلت هذا الصباح برسالة من «دي كامب»، وحدثني عنك بمودة، كما أنه يشكرك من أجل دعوتك له إلى «المعهد»، لكنه يود أن تعرفي أنه لم يتوصل بها بعد (لقد حدثته عن الدعوة التي ترغبين في توجيهها له ما إن أخبرتني بذلك في رسالتك)، على أية حال هو ممتن لك على نواياك الطيبة، ولهذا كلفني بأن أبلغك تحياته الأخوية.

حبيبتي، يهيأ إلي أنك لا تُقَدِّرِينَ العبقرية، وأن الرعشات لا تغمر جسدك حينما تتأملين التحف الفنية، ما يسعني أن أقوله لك هو أنه لا يكفي أن نملك أجنحة، بل لا بدّ من أن نكون قادرين على التحليق في سماء الفن والجمال!

يوماً ما سأكتب إليك رسالة أدبية مطولة. لقد أنهيت اليوم قراءة دراما «ساكونتالا»، إن بلاد الهند تسحرني، إنها مدهشة! أما الدراسات التي قمت بها في بداية السنة حول البراهمانية في الديانة الهندوسية فلقد كادت أن تصيبني بالجنون، إذ في بعض الأحايين كان يخيل إلي أن عقلي ليس

على ما يرام. آه، علمت هذا الصباح أنني سأتوصل بعد خمسة عشر يوماً بأحزمة حريرية من مدينة «سميرنا»، وأسعدني هذا كثيراً، أعترف لك بأنني أضعف أمام هذه الإكسسوارات المميزة!

إلى اللقاء، أقبّل قدميك.

* * *

ليلة الثلاثاء/الأربعاء (15 سبتمبر 1846)

لا يهمني إذا ما كنت لن أحظى بالخلود! هكذا فإن اسمي الغامض سيموت بموتي، وسيمضي الناس قُدماً لأنهم لن يفقدوا شخصية شهيرة.

كم تروقني فكرة العَدَمِ المطلق! ثمة حقيقة بديهية: «إنها الحياة التي تُواسي الموت، وإن الموت هو الذي يُواسي الحياة!».

أخبريني لماذا تتجنبين بقسوة صديقك الفيلسوف الطبيب إلى درجة أنه لاحظ تغيّر تصرفاتك معه وعاتبك عليها؟ ما الذنب الذي اقترفه يا ترى هذا المسكين كي تسيئي معاملته؟ أرجوك لا تهملي أصدقاءك، وتعاملي معهم بالطريقة نفسها التي كنت تعاملينهم بها في السابق، أنا لا أريد أن أبعدك عن أصدقائك، بالعكس، أرغب في أن تحسني علاقتك بهم.

لقد أضحكني للغاية الوصف الذي تلا ظهور شخصية «بيرانجيه» بطل الكاتب «ألكسندر دوما»، يا لَخِفَّةِ روح ووَدَاعَةِ دوما! ويا لأخلاقياته الراقية! أتعلمين أن هذا الرجل (ولو أنه يفتقد الأسلوبية المميزة ككاتب)، يمتلك الكثير منها كإنسان؟ ولهذا بوسعه أن يلهمنا بشخصية إبداعية مميزة، لكن من المؤسف أن مجالنا الأدبي قد تدنى إلى هذه الدرجة! وصرنا نحيا في زمن الأدب الصناعي، السريع، وهكذا فإن الصحف التي تنشر هذه القصص على شكل حلقات، تبحث عن أرخص التكاليف لتطبع في وقت قياسي أكبر عدد من النسخ الموجهة إلى أكبر عدد ممكن من القراء/

المستهلكين. إن دوما لم يكن منتشراً ولم يكن له عدد كبير من القراء حينما كتب دراما «أنجيل» الجادة، لكن الآن الكل يقرأ كتاباته الشعبية! للسبب نفسه الذي يجعل العامة يقبلون على نبيذ «ميدوك» العادي للغاية، أكثر من إقبالهم على نبيذ «بوردو» ذي الجودة العالية. مهما قلنا فإن الواقع يجبرنا على الاعتراف بأنه هناك في المجال الفني والأدبي ميل كبير إلى الشعبية المثيرة للخجل، وألكسندر دوما يملك الكثير منها!

إنني أشتغل بوتيرة مُرضية، إذ أمضي النهار بأكمله في دراسة اللغة اليونانية واللاتينية، وفي المساء أقرأ عن «الشرق»، لكنني مهما شغلت نفسي فإنني لا أحرز أي تقدم، لأن عقلي مشغول دوما بالتفكير فيك، واستحضار ذكراك..

غداً سأتوصل من باريس بأريكة مخصصة للكتابة، سأقوم بتدشينها عبر كتابة رسالة إليك، وهذا سيجلب لي الحظ الذي سيؤثر تأثيراً جيداً على كل ما سأكتبه فيما بعد.

أتعلمين، لم يسبق أن أحبتني امرأة كما تحبينني، وأنا أيضاً لم أحبب قبلك بهذه الطريقة، إننا لا نعيش قصة حب مماثلة سوى مرة واحدة في حياتنا بأكملها! قصة تنطبع في ذاكرتنا إلى الأبد، وعندما يلقي الموت بظلاله علينا، فإننا لا نلفظ أنفاسنا الأخيرة قبل أن نستحضر بامتنان هذه الذكرى المباركة!

إلى اللقاء أيتها الغالية، قبلاتي.

* * *

مساء الخميس (17 سبتمبر 1846)

كل يوم أمنع نفسي مئة مرة من نطق اسمك، لكن أبسط شيء يجعل تفكيري منصباً حولك، وكأنك كوكب يدور قلبي في فلكه، آه، يا كوكبي الجميل!

إنني أشتغل أكثر من ذي قبل، لقد جلست طوال فترة الظهيرة ولم أتحرك من مكتبي لما يناهز السبع ساعات، ثم عملت لثلاث ساعات أخرى هذا المساء. كما أعيد قراءة «الإلياذة»، وأردّد بعض أبياتها بلا توقف، وهكذا فإنني أتعب عقلي، ثمة أبيات تظل محفورة في ذهني وكأنني مهووس بها، تماماً كتلك الأغنيات التي تتردد دوماً في عقولنا والتي تنهكنا رغم كوننا نحبها، ما زلت أقرأ الدراما الهندية، وفي المساء أعيد قراءة «مُشَرِّعِ مونبارناس» للكاتب الرائع «نيكولا بوالو»، ها هي ذي تفاصيل حياتي اليومية، أخبريني بدورك عن كل تفاصيلك اليومية، كلها! لأنه لا شيء مما ستحكينه لي سيبدو في نظري بلا معنى أو مجرداً من الأهمية.

إنك تشيرين إلى أنك تخفين عني أحزاناً لا تودين أن تطلعيني عليها، آه، أرجوك! باسم حبنا أخبريني بكل أحزانك، ربما أتمكن من مواساتك ولو بالكلمات، أنت تعلمين أنني ناضج وأملك بعض الخبرة، فبوحي لي بكل ما يثقل كاهلك، ليس بالطريقة التي نبوح بها لعشاقنا بل كما نبوح بما يشغلنا لأصدقائنا القدامى، إنني أرغب في أكون كل شيء بالنسبة إليك،

كما أود أن أساعدك مادياً وأن أحيطك بالعناية، بالترف والاهتمام الذي تستحقينه.

آه، فقط لو كنا حُرَّيْنِ! إذ ذاك كنا سنسافر معاً، إنني أحلم بهذا الأمر كثيراً، ربما تكمن مشكلتي في أنني إنسان حالم، فبوحي لي بكل شيء، واحكي لي معاناتك ومشاكلك، ألم أحكِ لك ما يكفي عن معاناتي ومشاكلي الخاصة؟ إنني أرغب في أن أكون ذا فائدة في حياتك، بما أن الأيام تمضي دون أن أتمكن من إهدائك السعادة.

ذات يوم، فيما بعد، سأسرد لك الحكاية الطويلة لصباي، ولا شك في أنها ستكون مادة صالحة للكتابة، وستتحول إلى كتاب رائع إذا ما وُجد كاتب قوي إلى حدٍّ كبير كي يكتبها، لكنني لن أكون مؤلف هذا الكتاب! في حياتي، سبق وخسرت الكثير، إذ حينما كنت في الخامسة عشرة من عمري، كانت مخيلتي أكثر خصوبة، لكنني كلما تقدمت في العمر، وجدتني أفقد حماسي، حيويتي، وأصالتي، وفي المقابل، فإن ذوقي الأدبي والنقدي يتحسن بشكل مطرد، وأكثر ما يخيفني هو أن يأتي يوم لا أعود فيه قادراً على كتابة جملة واحدة، كون عشقنا للكمال يجعلنا لا نقبل بأقل منه.

إلى اللقاء محبوبتي الغالية (مع أنك لا تحبين أن أناديك هكذا، لا بأس فقد كتبته بعفوية)، فاكتبي لي، وفكري بي، إنني أقبلك، الساعة تشير إلى منتصف الليل، سأخلد إلى النوم، عساني أراك في أحلامي!

***

الأحد (20 سبتمبر 1846)، العاشرة مساء

ليلة أمس نمت متأخراً، وفي الصباح أيقظوني كي أتسلم رسالتك التي قرأتها بعيني المنتفختين وأنا نصف نائم، لقد كانت رسالتك هذه بمثابة تلك القبل الحنونة التي توقظ بها الأمهات أطفالهن، أو ذاك العناق الأمومي الذي يبارك اليوم بأكمله، إنني أحب رسائلك التي تشبهك تماماً، وكلماتك التي تنبع من قلبك الطاهر! كما أن رسائلك تتماهى مع التعابير المتناقضة التي ترتسم على وجهك، وجهك المتحمس، الحزين، الحالم، المحب والرقيق في آنٍ واحد. وأنا أقرأ رسائلك، يهيأ إلي أنني ألمحك بين سطورها وأنت تبتسمين لي، وحينما أوشك على نهاية كل صفحة منها، يخيل إلي أنك ترمقينني بنظرتك الناعمة.

إنك تحكين لي الكثير من التفاصيل عن أناس لا أعرفهم، في حين أنك تخفين عني تفاصيل حياتك الخاصة، أليس من المحزن أن نعيش ونحن بحاجة ملحة إلى المال لننفق على شغفنا الإبداعي؟ إن هذا من أكثر الأشياء التي تزعجني وتجرحني، أحياناً، أجد نفسي فقيراً للغاية أمام المتطلبات اللانهائية لهذا المجال، وعندما أحدث أمي حول هذا الموضوع، فإنها لا تفهمني ولا تتصور كيف أن للخيال ثمناً باهظاً أكثر من أي شيء آخر، ولهذا فإن كلامي يجرحها، وأجدها تستعيد ذكرى أبي الذي وفر لنا بفضل عمله معيشة ميسورة. لكنني أفكر في أنها مأساة عظمى، نستشعرها يوماً

بعد يوم، حينما نولد في بيئة ساذجة رغم أنها محاطة بالثراء، إن هذه البيئة تتسبب في معاناتي!.

ربما سيضحكك ما سأقوله لك، وأنا أيضاً أجد أنني سخيف للغاية، لقد حاولت أن أصحح هذا العيب، عبثاً، لأن حالتي تسوء عوض أن تتحسن: إنني جشع وفي الوقت نفسه لا أتمسك بالمال، وإذا ما حل يوم وأتى أحدهم ليخبرني بأنني ما عدت أملك فلساً واحداً، فإن هذا الخبر لن يمنعني من أن أغط في النوم كالمعتاد. أما بالنسبة إلى خطيئتيْ الحسد والغيرة، فإنني عندما أسبر أغوار روحي، لا أعثر على أي أثر لهما بداخلي، ولطالما انتشيت بسعادة الآخرين، لكن من الممكن أن نقطة ضعفي هي احتياجي المهول إلى المال، لأنه لدي شهية للرحلات واقتناء أشياء قيمة، هذه الشهية التي تكبر وتزداد حدة إلى درجة أنها تستحيل هوساً في حالة ما إذا لم أشبعها، لقد سألتني قبل أيام كيف قضينا وقتنا أنا ودي كامب؟ طيلة ثلاثة أيام، عملنا على خريطة استعنا بها للتخطيط لرحلة طويلة إلى قارة آسيا، رحلة من المرجح أن تدوم لستة أعوام، ستكلفنا حسب تصورنا أكثر من ثلاثة ملايين فرنك، ومع ذلك فقد رتبنا أنا ودي كامب كل شيء تقريباً، واقتنينا الأحصنة، المعدات، الخيام، الملابس والأسلحة، كما اتفقنا على الرواتب التي سندفعها للرجال الذين سيرافقوننا في هذه الرحلة.. إلخ، إن التفكير في هذه الرحلة قد استبد بنا إلى حدّ أننا أصبنا بالمرض، سيّما دي كامب الذي عانى من الحمى، أليس هذا ضرباً من ضروب الجنون؟ ولكن ما العمل إذا كان هذا الشغف يسري في دمي؟ أهذا ذنبي؟ إن العيش في باريس سيكلفني ثلاثين ألف فرنك في السنة، ولكن لن يكون بمستطاعي تأمينها أبداً بحكم أنني غير قادر على العمل لكسب فرنكين، لذا اخترت سلفاً أن أذهب للعيش في مكان مغمور بالشمس

التي سيجعلني دفئها أستعيض عن الملابس. أجل، كنت أود أن أكون ثرياً لأقوم بأمور جيدة، كما كنت ساعتها سأدرس الفن التطبيقي، وكنت لأصير رجلاً عظيماً وجذاباً، وكان الجميع ساعتها سيرغبون في التعرف علي، حتى الأشخاص الوضيعون كانوا سيحبونني، وأنا كنت سأسعد بجعلهم يثملون كل مساء، إن المحسنين يشعرون بالفخر بأنفسهم عندما يمنحون حذاءً لرجل حافي القدمين، وحساءً لشخص يتناول كسرة خبز يابسة، أما أنا، فبوسعي أن أتصرف بطريقة أفضل منهم، إذ كنت سأهدي المتعة للأشخاص البائسين، والكماليات لأولئك الذين يملكون الأساسيات، ثمة حقيقة بديهية: «إن الكماليات هي أول الاحتياجات»، أتعلمين فيمَ أفكر هذه الأيام؟ إنني أفكر في قطعتي أثاث أرغب في أن يتم صنعهما لي خصيصاً، القطعة الأولى هي أريكة مصنوعة من جلد البجع، أما القطعة الثانية فهي أريكة مصنوعة من ريش طائر الكوليبري، إن التفكير في هاتين القطعتين من شأنه أن يشغلني طوال اليوم ويشعرني بالحزن في المساء، لا تظني أنني شخص كسول، يمضي يومه وهو يحدق في السقف ويحلم بكل هذه الأشياء، على العكس، أنا إنسان نشيط وكادح، أشغل نفسي بالقراءة والكتابة، كل ما في الأمر أنه لدي رغبات داخلية تسحبني إلى أرض الحلم رغماً عني.

إلى اللقاء حبيبتي الغالية، إنك لا تدعين لي المجال لأفاجئك، لقد كنت أنوي أن أهديك حزاماً من الأحزمة التركية التي سأتوصل بها وها أنت تطلبين مني أن أمنحك واحداً منها، لكنني أؤكد لك أنني لم أتوصل بها بعد، كيف لك أن تتخيلي أنني لا أود أن أهديك هذا الحزام؟!

ألف قبلة.

* * *

الثلاثاء (22 سبتمبر 1846)، العاشرة صباحاً

يتحتم عليَّ أن أقصد روان اليوم لأتلقى المنحوتة التي أرسلها إلي «فيدياس»، كنت أفكر في أن أقصدها يوم غد بسبب ترتيبات متعلقة بمنزلنا الشتوي لذا كنت أنوي أن أكتب لك هذا المساء رسالة مطولة، وأن أذهب إلى مركز البريد صباح الغد لأرسلها لك قبل الساعة الحادية عشرة لتتوصلي بها في المساء، ولهذا أرسل لك هذه الكلمات وهذه القبلات على وجه السرعة، وسأسلم هذه الرسالة إلى خادمي ليبعثها إليك في الصباح.

توصلت برسالتك، لقد انتظرت ساعي البريد على الرصيف، وأنا أتظاهر باللامبالاة وأدخن، يا لطيبة ساعي البريد هذا! دعوته إلى المطبخ ليشرب كأساً من النبيذ. أمس لم يجلب لي شيئاً، لأنه لم تصل أية رسالة منك!

إنك تبعثين إلي كل التكريمات التي تتلقينها، لقد قرأتُ رسالة «الفيلسوف» بتعمق وبكل ما أوتيتُ من ذكاء، ولمحتُ فيها إلى حدٍّ كبير أعماق روح هذا الرجل، مع أنه يحاول أن يبدو هادئاً، بارداً بل فارغاً من الداخل، إلا أنني واثق من أن حياته تعيسة ومُعْتِمَةٌ، ولكنه أحبك للغاية ولا يزال يكنّ لك حبّاً عميقاً وفريداً، إن حبه هذا سيدوم طويلاً، أعترف بأن رسالته قد آلمتني، إذ اكتشفت بين سطورها الوجود الباهت لهذا

الفيلسوف الذي يحاول ملأه بأعماله وأبحاثه التي يقوم بتنفيذها بدون حماسة وبعِناد محموم، وأنا أعتقد أن هذا العمل هو كل ما يساعده على تحمّل وجوده. إن حبه لك يمنحه القليل من البهجة، لذا كان يتشبث به كما تتشبث العجائز بالحياة، وكنتِ أنت شغفه الأخير والحضور الوحيد الذي يواسيه، وأظن أنه يغار من صديقك الشاعر «بيرانجيه»، ولا بدّ من أن نمط حياة ومجد هذا الأخير لا يروقانه. عادة ما يكون الفيلسوف كائناً هجيناً ما بين العالِم والشاعر، ولهذا ربما يحمل في داخله بعض الحسد تجاه كل من العلماء والشعراء.

قلتِ جملة صادقة: «إن الحب كوميديا عظيمة، وكذلك الحياة، سيّما حينما لا نؤدي أي دور فيها»، ومع ذلك فإنني لا أجدها كوميديا مضحكة، وأنا أتحدث هنا عن خبرة مسبقة، إذ قبل عام ونصف، كنت أتردد على منزل حيث تعرفت على فتاة جذابة، حسناء، ذات جمال قوطي، لكنها كانت ساذجة، سهلة التأثر، لأن قلبها نقي، وكانت تارة تبكي وتارة تضحك، كتعاقب المطر والشمس، وكنت أحرك مشاعرها بكلماتي. لا زلت أتخيلها وهي تضع رأسها على وسادتها الزهرية وتنظر إلي بعينيها الزرقاوين الواسعتين وأنا أقرأ. في أحد الأيام، كنا لوحدنا في المنزل، وكنا جالسين على الأريكة، عندما أمسكت يدي واشتبكت أصابعنا، تركتها تقوم بذلك دون أن أفكر في أي شيء، كون نواياي بريئة في معظم الأحيان، إلا أنها رمقتني بنظرة لا زالت القشعريرة تسري في جسدي حينما أتذكرها.. وفي تلك اللحظة عادت أمها إلى المنزل، وفهمتْ ما يجري فابتسمت وهي تفكر في أنني سأتزوج ابنتها، لن أنسى أبداً ابتسامتها تلك، إذ كانت من أعذب الابتسامات التي رأيتها. أنا متأكد من أن الفتاة المسكينة انجرفت

تحت تأثير مشاعرها التي لم تستطع مقاومتها، واستسلمتْ للحظة ضعف داخلي، تلك اللحظات التي يهيأ إلينا فيها أن كل ما نحمله في دواخلنا يذوب ويتحلل، وكأننا نحتضر من فرط النشوة. لن تتصوري مدى الرعب الذي اعتراني وقتها، وعدت إلى منزلي وأنا مضطرب وألعن نفسي لأنني لم أتجاوب مع تلك الفتاة، لا أدري إذا ما كنت قد ضخمت هذا الأمر، ولكنني رغم أني لم أحبها، كنت سأمنح حياتي بكل سرور مقابل نظرة الحب الحزينة هذه التي لم أستجب لها..

قد تكونين محقة بقولك لي إن القراءة بإفراط تطفئ الخيال، لأن الخيال الفردي وحده يملك قيمة فعلية، ولكنني تورطت في عدة أعمال لا بدّ أن أنهيها، ثم إنني ما زلت أخشى التأليف، لأنني لا أريد أن أفوت أي شيء من مخططاتي، إلى حدٍّ يجعلني أتراجع عن تنفيذ مشاريعي.

إلى اللقاء حبيبتي الغالية، حان وقت ذهابي.

المخلص لك.

* * *

الخميس (24 سبتمبر 1846)، الحادية عشرة صباحاً

ليلة أمس، عشنا اضطراباً استثنائياً، ولكنني لم أعاينه بحكم أنني كنت نائماً في ذلك الوقت وكنت أحلم، لقد زارني حلم جميل، رأيت نفسي فيه وأنا أقف على هضبة عالية مشرفة على البحر، ولهذا لم أسمع الضجة التي حدثت.

لقد تعرض منزل زوج أختي الراحلة للسرقة، وقدم جيرانه ليخبرونا بالأمر وهم مسلحون بعصيهم ومظلاتهم ليستعينوا بها إذا ما اضطروا إلى الدفاع عن أنفسهم، كان صهري يقضي الليلة بمنزلنا، لأن طفلته كانت مريضة ولم يكن في منزله أي شخص عدا خادمه الذي أصابه الفزع وكسر زجاج النافذة وهَمَّ بالقفز منها، إن هذا أمر مضحك بالفعل! الخادم المسكين تعوزه الشجاعة، لهذا كاد أن يفقد عقله من فرط الهلع. الكل هنا منشغلون بحادثة السرقة هذه، تمت سرقة الساعة الحائطية وعدة أغراض مختلفة عثرنا عليها فيما بعد ملقاة في حديقة منزل صهري، وددت لو أنهم أيقظوني، لا لأرى السارق البائس الذي لم يلمحه أحد، بل لأتأمل الوجوه الغبية للأشخاص الذين كانوا يبحثون عنه، للأسف فوتت مشهداً مثيراً للاهتمام للمرة الثانية على التوالي! إذ حينما كنت في كورسيكا، كان مرشدنا جندياً سابقاً، وفي أحد الأيام تناهت إلى أسماعنا فجأة طلقتان ناريتان بدتا وكأنهما تستهدفاننا، إذ ذاك، طلب منا المرشد (الذي كان يعرف جيداً كل لصوص البلدة بحكم عمله) أن نسير خلفه ونحن نحافظ على مسافة بيننا، ثم تقدم وهو يحمل بندقيته ويضع إصبعه

على الزناد، ونحن نتبعه على مسافة عشرة أقدام، ونمسك بلِجام أحصنتنا، استمر مسيرنا لمدة عشر دقائق، دون أن نلاحظ أي شيء مريب، كانت هذه الحادثة من أكثر الحوادث التي أثارت حفيظتي، لأن الخطر يستهويني، رغم أنني لا أدعي البطولة، لكن بوسعي القول إن الخطر يسليني!

لا شيء على ما يرام هنا، فابنة أختي مريضة، وتتقيأ طوال الوقت، ويهيأ إلي أنها لن تحيا كي تصبح عجوزاً، بل ستسير في طريق الموت نفسه الذي سارت فيه أمها، وجدها/ أبي، إنني أنتظر ذلك.. أعتقد أن ذلك راجع إلى أنها محاطة منذ ولادتها بالكثير من الدموع والقبل اليائسة، وكما سبق وقلت لك، إن الأطفال المحاطين بحب كبير يصابون باللعنة! في النهاية، فلتكن مشيئة الرب! لأنه إذا كان موتها مقدراً، فليس بوسعنا فعل أي شيء!.

أنا وأمي نشعر بالقلق بسبب حالة زوج أختي، لأن الحزن كسره، إلى درجة أنه يخيل إلينا أن هذا الرجل المسكين يكاد أن يفقد صوابه، وأخشى أن كل ما تعيشه عائلتنا الآن سينتهي نهاية مأساوية!

لماذا وجهتِ إلي لومك مجدداً في رسالة أمس؟ ها أنت تسألينني مرة أخرى لمَ لا أرغب في القدوم إلى باريس لرؤيتك؟ إنه السؤال نفسه دوماً! ألا ترين أنني أرزح تحت ضغط هائل من الجميع، وأنني عالق هنا! لذا أنا بالكاد أعثر على ذاتي وسط فوضى الآلام التي تحاصرني!

سأكتب لك غداً مساءً رسالة سأجيبك فيها عن كل أسئلتك، ولكنني الآن أود أن أطمئنك وأؤكد لك أنني لست على علاقة بامرأة أخرى كما تظنين، وبإمكاني أن أحيا لسنوات دون أن ألمس أية امرأة! لقد مضى زمن طويل على مغامراتي العاطفية، التي كنت أخوضها بسبب هوسي بالبحث عن الحب، أكثر من بحثي عن المتعة الجسدية!

إلى اللقاء أيتها الغالية جداً.

***

الأحد (27 سبتمبر 1846)، الحادية عشرة صباحاً

أخيراً بعد انتظار دام أربعة أيام، توصلت برسالة منك، لقد اعتقدتُ أن هذا اختبار عمدي لتستفزيني وتَرَيْ كيف سيكون ردّ فعلي؟ بالمناسبة، أرغب في أن أسدي لك نصيحة: لا تبوحي بأسرارك لأيٍّ كان، فكثيراً ما تأتينا الخيانة من أقرب الناس إلينا بمن فيهم أصدقاؤنا، فاحفظي عن ظهر قلب هذه الحقيقة البديهية يا طفلتي الغالية: «إن عدم الثقة بمثابة صَمَّامِ الأمان».

إنك تستغربين كيف أنني فهمت طبيعة «الفيلسوف» مع أنني لا أعرفه؟ ألم يسبق أن قلت لك إنني أملك خبرة حياتية لا بأس بها، لكنك لم تصدقيني، أنا رجل ناضج، نضجت قبل الأوان، وهذا راجع إلى أنني أراقب الحياة والأحياء كثيراً دون أن أسعى للتوصل إلى استنتاجات، وبالنسبة إلي، فإن المراقبة هي الوسيلة الأنجع كي لا نرتكب الأخطاء.

أنت تودين أن تعرفيني على بيرانجيه، وأنا أيضاً أرغب في التعرف عليه، إنه رجل ذو طباع عظيمة، ولكن فيما يتعلق بأعماله، ثمة مأساة كبرى، مأساة تكمن في الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها قراؤه والمعجبون به، هناك عباقرة عظماء ينتقص من قيمتهم أن أعمالهم تروق بشكل خاص لأصحاب العقول المبتذلة، وبيرانجيه على سبيل المثال، يغذي منذ ثلاثين عاماً قصص حب الطلاب والأحلام الشهوانية للمسافرين، أنا أعلم جيداً أنه لا يوجه كتاباته

إلى هذه الفئة من الجمهور، ومع ذلك فإنها أكثر فئة تعشق كتاباته، ولطالما رددتُ أن الشعبية لا تساهم في انتشار العبقرية بقدر ما تجعلها مبتذلة، إن الفن والجمال الحقيقيين يصعب فهمهما على العامة، خصوصاً في فرنسا، هكذا، فإن مسرحية «هاملت» لشكسبير ستمنح دوما متعة أقل بكثير من تلك التي تمنحها مسرحية «الآنسة بيل إيل» لألكسندر دوما، للجمهور العادي. بالنسبة إلي، لا يلمس بيرانجيه عواطفي، ولا يعبّر عن أحلامي، ولا يتوافق مع رؤيتي للشعر، كل ما في الأمر أنني أقرأ أعماله كما لو كانت وثيقة تاريخية، كونه ينتمي إلى جيل الأدباء الذي سبق جيلنا، وكتاباته تعبّر عن زمنه، إلا أنها ما عادت صالحة لزمننا، بل إننا نجدها غريبة، نحن شباب اليوم، لذا نعجب بها دون أن تلامسنا كما لو كانت نشيداً لديانة غابرة.

إنني أحب قراءة أعمال العباقرة الذين يصعب الوصول إليهم، لأنهم لا يختلطون بالجمهور، بحكم تفضيلهم للعزلة، لكن في نظري، هناك عبقري واحد يحظى بمكانة خاصة في قلبي، إنه شكسبير الذي سأعيد قراءة أعماله الكاملة، إذ حين أقرأ له، أحس بأنني أصبح أنضج، أذكى وأكثر نقاءً، وحينما أصل إلى ذروة إحدى تحفه الأدبية، يخيل إلي أنني أقف فوق قمة جبل عالٍ، ويختفي كل شيء حولي، لتتجلى لي آفاق جديدة، وتمتد الرؤى إلى ما لا نهاية. كنت قد كتبت بخصوص السعادة التي تغمرنا إثر القراءة للشعراء الكبار، جملة ستفهمينها حتماً: «يبدو لي أحياناً أن الحماس البالغ الذي يُهدونني إياه يرفعني إلى مستواهم لأصير مُساوياً لهم».

ألف قبلة حبيبتي الغالية.

المخلص لك.

* * *

صباح الإثنين (28 سبتمبر 1846)

لا، مرة أخرى، لا، أنا أعترض على اتهاماتك، وأؤكد لك أنه إذا كان الامتلاك لا يُورِثُ الآخرين إلا الازدراء، فأنا لست مثلهم وأفتخر بذلك، إذ على العكس إن الامتلاك يزيد تعلقي بك.

مخطئة أنت عندما تقولين لي إنكِ مجروحة في كبريائكِ، لماذا؟ هل فعلتُ شيئاً أهانك؟ أنا من يجب أن يشعر بالإهانة لأنكِ تبذلين جهداً كبيراً لتثبتي لي أنني لا أحبكِ، حاولي كما شئت، لأن قلبي يخبرني أنني متيم بك، وقد يمضي عام دون أن أراك أو أن أراسلك، لكن هذا لن يغير من مشاعري نحوك قيد أنملة، فحينما تتغلغل المحبة في روحي يصير من الصعب أن تنمحي.

سأذهب، بعد ثمانية أيام من الآن، إلى أمين اللجنة المكلف بتمثال والدي، وسأطلب منه أن يسرّع الأمور قليلاً، فالعطلة على وشك الانتهاء، وسنعود عما قريب من الريف، سنحاول تسريع القرار وسيتيح لي ذلك، كما قلت لك، فرصة البقاء في باريس لمدة تزيد عن عشرة أيام متتالية على الأقل، وربما خمسة عشر يوماً، بحسب استطاعتي، لكن متى سيحدث ذلك؟ لا أعلم. لقد مرّ ما يقارب عشرة أشهر والأمور لا تزال متأخرة، هؤلاء السادة بطيئون في عملهم.

ربما يتعين علي أن أذهب، غداً أو بعد غدٍ على الأرجح، إلى دييب،

للتجول مع أصدقائي من شامبينوا. بما أنهم يديرون أعمالنا هناك (الزوج يدير ممتلكاتنا) مجاناً، ترى أمي أنه من الواجب أن نظهر لهم أكبر قدر من الأدب. إن أمي مشغولة دوماً برعاية طفلة أختي الراحلة، وبالإشراف على مربيتها، لذا، فأنا من يتحمل هذا العبء. فبالكاد أحصل على ثلاث أو أربع ساعات لنفسي في المساء. عانينا كثيراً مؤخراً بشأن هذه الطفلة. ولكن، شكراً للرب، لقد مرت المرحلة الصعبة، لكن لا ريب في أن وضع الطفلة سيسوء مجدداً. ذهبت أمس إلى محطة السكك الحديدية لأحجز مقعداً لي، إن قلبي يعتصر ألماً عندما أشاهد تلك العربات تغادر دون أن أركبها، راقبت القطار المتجه إلى باريس، وعلى جنبات الرصيف، كانت تمر بين الفينة والأخرى عربات تتأهب لتنطلق صوبها في الرابعة بعد الزوال، ليتني كنت هناك! نعم، سأوقد فيك نار الرغبة بكلماتي هذه: عندما استيقظت هذا الصباح بقيتُ في سريري لساعة طويلة أحلم بك، تذكرت خصوصاً نظرتك الجذابة وأنت مستلقية بجواري، وخصلاتك المجعدة متناثرة على الوسادة، أتعلمين لويز، غمر الحنين قلبي في هذه اللحظة، واشتعلت في جسدي نار ملتهبة. رباه! ما جدوى هذه التخيلات، لا شيء سوى أنني سأعيش المزيد من المعاناة، إنني أعاني منك، وأشفق على ألمك. إذا كنت تودين حقّاً أن تكوني لطيفة معي وأن تسعديني، فهوني عليك حزنك، هذا كل ما أطلبه منك.

أشكرك على الجهد الذي بذلته من أجل توفير المعلومات التي طلبتها منك. أعرف الشاب «لوبراش»، لقد درسنا معاً في روان وطرد بسبب قضية قذرة كان بريئاً منها تماماً. بالنسبة للسيدة «فوكو»، فإنها بالفعل السيدة التي أعرفها منذ زمن طويل وأرغب في كتابة رسالة إليها، لا تشعري بالغيرة!

يمكنك الاطلاع على الرسالة إذا شئتِ، شريطة ألا تمزقيها. أترين؟ لو كنت أعتبرك امرأة عادية كما تقولين، ما كنت لأخبرك بكل هذا، ولكن ربما لأنني أعاملك أحياناً كما لو كنتِ رجلاً لا امرأة فإنك تشعرين بالانزعاج، حاولي استخدام القليل من عقلانيتك في علاقتك معي، لقد اعتقدت منذ البداية أنني سأجد فيك شخصية أكثر عقلانية، تملك تصوراً كونياً للحياة، ولكن لا! هذا القلب المسكين، هذا القلب الطيب، هذا القلب الجميل بنِعمه الأبدية، دائماً موجود، في صدر كل النساء حتى الشامخات والعظيمات منهن، وعادةً ما يقوم الرجال بكل ما في وسعهم لجُرح أفئدة النساء حدّ النزف، وكأنهم يستمتعون وهم يروون ظمأهم من كل تلك الدموع التي ليس بمستطاعهم أن يذرفوها، ويثبتون قوتهم عبر كل تلك العذابات الصغيرة التي يتسببون فيها، ولو كنت فعلاً من طينة الرجال الذين يبحثون عن هذا الصنف من المتع، لكنت فعلت بك ذلك.

لكنني أرغب في علاقة مختلفة تماماً: ألا تكوني صديقتي أو عشيقتي وحسب، دعينا نخرج من هذه النظرة الضيقة والمقيدة للعلاقات، فالمرء لا يحب أصدقاءه بما يكفي، ويشعر بالغباء في حضرة عشيقته، لذا فأنا أبحث معك عن علاقة تجمع بين الصداقة والحب.

هل ستفهمين ما أقوله؟ أعتقد أنه ليس واضحاً، ولا أخفيك أنني بدوري أستغرب أحياناً ما أخطه لك من كلمات، وكأن التعبير يخونني وأفقد قدراتي الأدبية، إن هذا يحدث معك فقط، ولكنها الحقيقة، إن كل شيء يتداخل في رسائلي وكأنني أحاول أن أقول لك عدة كلمات دفعة واحدة.

أكتب لك وأنا أجلس لأول مرة على الأريكة الجديدة التي من المقرر أن أقضي سنوات طويلة وأنا جالس عليها لأكتب، ترى ماذا سأكتب؟ الرب

وحده يعلم، هل سيكون ما سأكتبه جيداً أم سيئاً، رقيقاً أم مثيراً، محزناً أم مبهجاً؟ ربما مزيج من كل هذا، أو ربما لا شيء في النهاية، لا يهم! أرجو أن يكون هذا التدشين بِشارة خير لكل أعمالي المستقبلية! لقد حل فصل الشتاء، الأمطار تهطل، ومدفأتي تشتعل، وعاد موسم الساعات الطويلة التي نمضيها داخل البيت، وقريباً ستأتي الليالي الصامتة التي نقضيها تحت ضوء المشكاة، ونحن ننظر إلى الحطب يحترق ونسمع هبوب الرياح، وداعاً لليالي المقمرة الساطعة فوق العشب الأخضر والأمسيات الزرقاء المزركشة بالنجوم!

وداعاً حبيبتي، أقبّلك بكل جوارحي.

***

الأربعاء (30 سبتمبر 1846)، التاسعة مساء

إنك تطلبين مني بإلحاح أن أحدثك بصراحة! وفي الوقت نفسه تريدين أن أعاملك برفق، إنك تتهمينني بأنني أتصرف معك بقسوة لكنك بدورك تعاملينني بالقسوة نفسها وربما أكثر. إن تلك الطرق الفنية التي تستخدمها النساء لإجبار الرجال على خداعهن تبدو لي غريبة وعجيبة! إنهن يجعلنك منافقاً رغماً عنك، ثم يتهمنك بالكذب عليهن وخيانتهن! حسناً، لا يا حبيبتي المسكينة، لن أشرح لك أكثر مما فعلت! إذ يبدو لي أنني لن أستطيع أن أكون أكثر وضوحاً، فلطالما قلت لك الحقيقة كاملة ولا شيء غير الحقيقة، واعلمي أنني إذا لم أستطع القدوم إلى باريس كما ترغبين، فذلك راجع إلى أنني مجبر على البقاء هنا كون أمي بحاجة إليّ، إن غيابي عنها ولو لفترة قصيرة يسبب لها الأذى، وحزنها يشعرني بآلام لا تطاق. إن ما قد يبدو للآخرين أمراً تافهاً يعني الكثير بالنسبة إلي، فأنا لا يمكنني أن أتخلى عن الناس الذين يتوسلون إلي بوجوههم الحزينة وعيونهم الممتلئة بالدموع، أنا ضعيف كَطِفْلٍ يستسلم بسرعة، لأنني لا أحب اللوم والتوسل والتنهد، في العام الماضي، على سبيل المثال، كنت أبحر يومياً بزورق شراعي، لم أكن أخاطر لأنه بالإضافة إلى مهارتي في الملاحة، فأنا سباح ذو قوة خارقة. حسناً، بدأ القلق يتسلل إلى أمي هذا العام لكنها لم تطلب مني بوضوح ألا أمارس هوايتي المفضلة التي تجذبني بسحرها خصوصاً عندما يكون المد والجزر قويين، أؤكد لك أن

أمي لم تقل لي شيئاً حول هوايتي هذه ومع ذلك قمت بوضع كل معداتي في السقيفة ولم أستخدمها، تجنباً للتلميحات وللنظرات غير المرغوب فيها، هذا كل شيء، وبالطريقة نفسها، ولمدة عشر سنوات، كنت أختبئ لأتفرغ للكتابة، تفادياً لسخرية محتملة. والآن أنا أحتاج إلى ذريعة للذهاب إلى باريس، ولكن ما هي؟ وفي الرحلة القادمة، سأحتاج إلى ذريعة أخرى، وهكذا دواليك، لم يتبق لأمي شيء يربطها بالحياة سواي، فهي تفكر طوال اليوم في الحوادث التي يمكن أن تصيبني، أتدرين أنني عندما أحتاج إلى شيء ما، لا أقرع الجرس لأنني إذا فعلت ذلك أسمعها تركض وهي تلهث بسرعة في السلالم لتطمئن قلبها وتتحقق مما إذا كنت بحالة جيدة، وأنني لم أتعرض لنوبة صرع مثلاً.. لذلك، أضطر دائماً لمغادرة غرفتي لأجلب الحطب عندما ينفد، والتبغ عندما تتملكني الرغبة في التدخين، والشموع عندما تُحتضر، ثقي بي حبيبتي أنني لو كنت قادراً على الإقامة بباريس، والعيش هناك بجوارك، ما ترددت ولو للحظة. ولكن.. للأسف! أتذكر أنه قبل حوالي عشر سنوات، كنا نقضي عطلة في «لوهافر» وعلم والدي أن امرأة كان قد تعرف عليها عندما كان في سن السابعة عشرة تعيش هناك مع ابنها الذي كان حينها ممثلاً في مسرح تلك المدينة (وما زال كذلك، أعتقد، في مسرح الجيمناز)، وخطرت له فكرة الذهاب لرؤيتها مجدداً، اشتهرت هذه المرأة بحسنها في بلدها، وكانت عشيقة أبي في السابق، لم يفعل أبي كما يفعل الكثير من البورجوازيين عادة، إذ لم يكن يخفي الأمر، لذلك ذهب لزيارتها، وبقينا أنا وأمي وإخوتي واقفين في الشارع ننتظره، استغرقت الزيارة مدة ساعة تقريباً، هل تعتقدين أن أمي شعرت بالغيرة أو بالاستياء؟ لا مع أنها كانت تحبه، لقد أحبته بقدر ما يمكن لامرأة أن تحب

رجلاً، وليس عندما كانا في ريعان شبابهما فقط، بل حتى آخر يوم من حياته، بعد خمسة وثلاثين عاماً من الزواج.

لماذا تقولين إنني جرحتك وسبّبت لك الحزن بسبب الرسالة التي أنوي أن أبعثها إلى السيدة فوكو؟ أنا أفعل أكثر مما فعله والدي، لأنني أقحمك كطرف ثالث في محادثتنا، نعم، أريد منك أن تقرئي رسالتي إليها، إذا كنت ترغبين طبعاً، وإذا كنت تفهمين سلفاً الشعور الذي يدفعني إلى ذلك. أتشعرين أن هذا لا يليق بك؟ أنا أعتقد العكس: إن تصرفي هذا دليل على ثقتي الكبيرة فيك. لقد بُحت لك بماضيَّ كله! وهذا يزعجك! إليك ما سأقول: إذا كانت هناك امرأة أحببتها فهي أنت، أقسم بشرفي!

اعتني بحنجرتك الرقيقة، وابقي في منزلك ودفئي نفسك جيداً، وأرجوك، لا تكتبي لي جملاً مثل هذه: « اذهب إلى دييب، واستمتع بوقتك جيداً»، لأنني بالفعل رجل يستمتع كثيراً إلى درجة قد تجعل من يستطيعون النفاذ إلى أعماقي يبكون! بحق السماء! عما تريدينني أن أتحدث إذاً، إن لم يكن عن شكسبير، إن لم يكن عما يعني لي الكثير؟ قلت لي في ملاحظتك إنه يجب أن أهتم أكثر بمخيلتي وأن أقلل من مشاعري، هذا ما أتمناه، لكنني أشك في ذلك، وفي كافة الأحوال أنا لا أفصح عن مشاعري إلا نادراً، وعندما أمعن النظر في خططي من جهة وفي الفنّ من جهة أخرى، أصرخ كما يفعل البحارة في «بروتون»: «يا إلهي، ما أعظم البحر، وما أصغر مركبي!».

وداعاً حبيبتي الغالية، أطبع قبلة على كل إصبع من أصابعك، اعتنِي بيديك واتركي أظافرك تطول أكثر، لا تنسي أنك وعدتني بهذا.

وداعاً، وداعاً، ألف لمسة دافئة.

* * *

السبت (3 أكتوبر 1846)، الثامنة صباحاً

سأرسل خادمي إلى روان ليبعث رسالتي إلى فيدياس، ومعها 2500 فرنك نظير التمثال التذكاري لأختي الذي أنجزه لي، كما سأكلفه أيضاً بإرسال هذه الرسالة التي أخطها إليك كي تستلمينها هذا المساء. أعتقد أنك مثلي تحبين الأخبار الجديدة. تحلي بالصبر لبعض الوقت حبيبتي، واقرئي هذا: ستجتمع اللجنة المكلفة بتمثال والدي بعد حوالي عشرة أيام لتتخذ القرارات اللازمة، وسأكون مندهشاً للغاية إذا لم يتم تكليف صديقنا فيدياس بالمهمة، لذلك سأقصد باريس قبل نهاية الشهر الجاري وسأمضي بها أسبوعاً كاملاً، ولو أن السبعة أيام التي سأقضيها بجوارك ستمضي بسرعة.

أشعر بخوف شديد من تباطؤ أعضاء اللجنة وتراخيهم، إنهم يظهرون بطئاً وإهمالاً مثيرين للريبة، سنكون محظوظين إذا تم إنجاز التمثال التذكاري بسرعة كما يقولون (لقد مرت تسعة أشهر ولا تزال الأمور على ما هي عليه، رغم أنه كان من الممكن أن يجهز التمثال في مدة لا تتعدى الستة أسابيع). سنلتقي قريباً أنا وأنت، ورغم أنه فصل الشتاء فإننا سنصادف بالتأكيد يوماً صحواً مناسباً للقيام بجولة في غابة بولونيا، وهكذا ستطلعينني على المكان السري الذي اكتشفتِه هناك، وإذا هطل المطر فإننا سنوقد النار لندفئ أنفسنا، أتخيلك جالسة ورأسك مسنود على كتفي، أترين أنك بينما

تنغمسين في جلد نفسك وتوجيه اللوم إليّ، فإنني لا أدخر جهداً للاهتمام بك وبعلاقتنا. قمت هذا الأسبوع ببعض الإجراءات لتسريع عمل اللجنة حتى يتسنى لي لقاؤك في أقرب وقت ممكن، كان يبدو لي وكأنني أسمع صوتك يهمس في أذني بعفويتك الطفولية: «تعال! تعال! عَجِّل!».

هل ترغبين في أن أهديك شيئاً أملكه منذ زمن طويل وأستخدمه عادةً؟ لقد فكرت في الأمر. سأحضر لك مشبكاً للورق واثنين من ديكورات الطاولة: قنينة صغيرة مصنوعة من الزجاج الصقيل أضع فيها الحبر ووعاء أضع فيه أختاماً. لقد اكتسبتْ هذه الأشياء قيمة كبيرة لأنها تقبع منذ زمن فوق طاولتي، كانت هذه الأشياء بمثابة شهود صامتين على ساعات عديدة من حياتي التي عشتها وحيداً، والآن ستصير ملكك، عساها تذكرك بصديقك في كل مرة تهمين فيها بالكتابة إليه!

هل تعلمين أنني إذا أردت أن ألعب دور الرجل العصي على الفهم، فإنني سأجيد ذلك؟ في رسالتك المقتضبة قبل يومين، قلت لي إنك متأكدة من أنني لم أحببك أبداً، رغم أن قلبك يخبرك بالعكس، ما الجدوى من هذه الكذبة التي تقنعين بها نفسك؟ قولي لي ألا ترين أنني أحبك كلما نظرتِ إلي؟ تحلي بالشجاعة وقومي بنفي ما تقولينه! هيا، ابتسمي، قبّليني، ولا تغضبي مني لأنني تحدثت عن شكسبير بدلاً من الحديث عن نفسي. كل ما في الأمر أن الحديث عنه بدا لي أكثر إثارة للاهتمام، هذا كل شيء. ترى ما الذي سنتحدث عنه إذا لم نتحدث عما يشغل فكرنا؟ بالنسبة إلي، لا أعرف كيف يعيش الأشخاص الذين لا يقضون يومهم في حالة جمالية. لقد استمتعت أكثر من غيري بالملذات، وتذوقت متع الحواس بقدر ما يتذوقها الرجال في سني، واختبرت الحب جيداً، ومع ذلك بوسعي أن

أؤكد لك أنه لم يمنحني أحد أبداً النشوة نفسها التي منحها لي بعض الأدباء اللامعين الذين توفوا وتركوا أعمالاً مشهورة قرأتها، غصت في أعماقها وتأملتها.

من بين أفضل الأشياء التي خلقها الرب في نظري، ثمة البحر و«هاملت» ومقطوعة «دون جوان» لموزارت. آمل أن كلامي هذا لن يسبب لك الضيق مرة أخرى! لأن انتقاداتك لي ليست صائبة، يمكنني أن أتقبل توجيهك لهذه الانتقادات في لحظة غضب عابرة، لكنها لا ينبغي أن تستمر وأن تنبع من أعماق قلبك.

دي كامب لا يزال في الغابة، يمتطي حصانه ويصطاد الخنزير البري. أنتظر منه رسالة يعلن فيها عودته. لقد فوتتُ الرحلة إلى دييب، أشكر الرب! لكننا نقوم بالتنزه كل يوم تقريباً في المناطق المجاورة، صادفنا قبل ثلاثة أيام مجموعة من الناس، كانت معهم سيدتان إحداهما ترتدي قبعة قش مماثلة لقبعتك، لا يمكنك تصور الأثر الغريب الذي خلفته فيَّ عندما رأيتها، لكن وجهها لم يكن مشابهاً لوجهك!

لن أتحدث أكثر عن السيدة فوكو، لأن كلامي عنها يزعجك..

كلي شوق في هذه اللحظة لقراءة كتاب ضخم أرسل لي من المكتبة الملكية، يحمل عنوان «حكاية شرقية» للمؤلف «نوتينغر». إنه كتاب لاتيني يزخر بالعديد من الكلمات اليونانية التي لا أفهمها دائماً، ويحتوي أيضاً على اللغة العبرية، يجب أن أعيده إلى المكتبة قريباً (اقترضه صديق لي). إنه كتاب غريب نوعاً ما، وبعد قراءته يمكن للمرء أن يتظاهر بأنه قد صار عالِماً في وقت وجيز وبأقل تكلفة، لكنني لم أطلبه لهذا السبب، بل بهدف

الاطلاع على معلومات مختلفة حول ديانة العرب قبل مجيء النبي محمد، وكذا للتعرّف على تركيبة الطلاسم، هكذا إذا وجدت طلسماً يجعلني غير مرئي، فإنني سأنسل وأتوجه مباشرة إلى شارع فونتين ـ سان ـ جورج، لأقبّلك أمام الجميع.

إلى اللقاء، حبيبتي الغالية، المخلص لك.

* * *

الخميس (8 أكتوبر 1846)، العاشرة مساء

عند نهاية يومي، وبعدما أكون قد فكرت، وكتبت، وقرأت، وحلمت، وتثاءبت بما فيه الكفاية، وعندما أَمَلُّ من العمل وأشعر بتعب يشبه تعب الكادحين في المساء بعد يوم طويل من العمل الشاق، أستريح عن طريق اللجوء إلى ذكراك، كما لو كنت أستلقي فوق فراش وثير، أهب نفسي لك، وأتنفسك، مما يجدد نشاطي ويدخل البهجة إلى روحي المنهكة، تماماً كما تنعش النسائم الليلية العليلة أرواحنا وتملؤها بالحيوية. بالنسبة إلي، فإننا حينما نفتح نافذتنا نفتح معها قلوبنا، ليغمرنا شيء مبهم نعجز عن تسميته، شيء ناعم جداً وعظيم. يبدو لي أن الليل قد خلق لنمط معين من الأفكار، نمط مختلف عن تلك الأفكار التي تراودنا طيلة النهار، إن الليل هو وقت التنهدات، والأماني، والذكريات، والآمال.. في هذا الوقت، وعندما تكون الروح وحدها مستيقظة، تجول الأفكار بحرية بين الأرض والسماء، تماماً كما تحلق الطيور بين السحاب. كما أن الجسم أيضًا تهزه رغبة جامحة في الاستمتاع المباهج والملذات، لذا فمن منا فكر في إقامة الولائم على نحو مغاير لتلك التي تقام تحت ضياء الشموع؟

أقسم لك أنني لا أعرف ما أقصده بكلامي! باختصار، أنا أرغب في أن أكون معك هذا المساء، أن أقبّل شفتيك، وأن أمرر يدي بين خصل شعرك، وأن أضع رأسي على صدرك..

هل فعلاً وجدت رسالتي إلى السيدة فوكو رقيقة نوعاً ما؟ لا أظن ذلك. على العكس، بدا لي أنه كانت تلوح بين سطورها بعض الغطرسة، وأن النبرة العامة كانت مهذبة قليلاً. قلت لي إنني أحببت هذه المرأة بجدية، هذا غير صحيح! ببساطة، حينما راسلتها، أخذت موضوعي على محمل الجدّ، فأنا شديد التأثر بالكتابة، لذلك أطلقت العنان لقلمي، كنت أشعر بالتأثر فقط أثناء كتابتي. سبق واعترفت لك أنه هناك الكثير من الأمور التي لا تثير اهتمامي، إما عند رؤيتها أو عندما يتحدث الآخرون عنها، والمفارقة أن نفس هذه المواضيع تثير حماسي، وتزعجني، وتؤلمني إذا ما كتبت عنها. وهنا يتجلى تأثير جانب من طبيعتي البهلوانية، أتدرين أن والدي كان يمنعني من تقليد بعض الأشخاص (وكان مقتنعاً بأنني سأعاني كثيراً من ذلك، وهو الأمر الذي كان صحيحاً على الرغم من أنني كنت أنكره)، وكان من بينهم شخص متسول مصاب بالصرع قابلته مرة على شاطئ البحر. لقد حكى لي قصته، كان في البداية صحفياً.. استمتعت حقّاً بحكايته! ومن المؤكد أنني كنت أتماهى معه عندما أقلده، لا يمكنك أن تتصوري إلى أي مدى كنت أبدو بشعاً وأنا أقوم بتقليده. لكن هل تفهمين الرضا الذي شعرت به حيال ذلك؟ أنا متأكد من أنك لن تفهميني.

بالعودة إلى تلك المخلوقة الجليلة (السيدة فوكو)، فإليك الحقيقة كاملة! لقد كانت لدي مغامرات أخرى غريبة إلى حدٍّ ما، ولكن من بين كل تلك الحماقات، التي لم تحتل شغاف قلبي كثيراً، عشت قصة حب واحدة فقط بعاطفة حقيقية، لقد سبق أن قلت لك ذلك بالفعل. كنت بالكاد في سن الخامسة عشرة واستمرت مشاعري حتى سن الثامنة عشرة، وعندما رأيت تلك المرأة مجدداً بعد عدة سنوات، كان من الصعب بالنسبة إلي التعرّف

عليها، ما زلت أصادفها أحياناً، ولكن نادراً، وأنظر إليها بالدهشة التي يشعر بها المهاجرون عندما يعودون إلى منازلهم المتهالكة ويتساءلون: «أيعقل أنني عشت هنا؟». إن المرء يتساءل في قرارة نفسه هل كانت هذه الأطلال دائماً أطلالاً، ثم يتذكر أنه الدفء كان يغمره في هذا المنزل حيث يتسرب الآن من الشقوق المطر والثلج. هناك قصة رائعة يجب أن تروى، لكنني لست أنا من سيرويها، ستكون جميلةً جداً، إنها قصة الإنسان الذي يعيش في الحداثة من سن السابعة إلى سن التسعين، أنا واثق أن من سيقوم بهذه المهمة سيظل خالداً في القلوب البشرية.

يمكنني، إذا شئتِ، أن أروي لك شيئاً عن الدراما التي عاينتها، سواء في حياتي أو في حياة الآخرين، والتي تجهلينها، قد يحدث شيء مماثل لدى النساء، ولكني لا أعلم علم اليقين، كوني لم ألتقِ بعد بأية امرأة كشفت لي بصدق قلبها المترمد، لأن النساء يرغبن في جعلك تعتقد أن كل شيء في قلوبهن جمر ولهب، وهن مؤمنات ومقتنعات بهذا. بينما أفكر في الأمر، خطرت لي نصيحة أريد إسداءها إليك يا حبي الكبير: لا تحدثي فيدياس عني كثيراً، مخافة أن يصاب بالملل مني، أنت تعلمين أن مدح صديق أمر مزعج، خاصة حين يتكرر، في الرسالة التي وصلتني منه، اقترح علي أن أذهب معه إلى نيم، رغم علمه أنني لا أستطيع ذلك! إذا غادر باريس في الثامن عشر من هذا الشهر، فإنه من المحتمل أنني لن أتمكن من رؤيته إلا بعد عودته، لأن اللجنة لن تعقد اجتماعها إلا في الأسبوع القادم. من جهة أخرى، يجب أن يُرسل لي الكاتب الخاص باللجنة رسالة خلال يوم أو يومين ليخبرني بالإجراءات المزمع القيام بها، وإذا حدثت معجزة وانتهت الإجراءات بسرعة، فسأهرب صوبك على الفور، أخبريني كم من الوقت سيغيب صديقنا؟

هل تعلمين أن عشاءك الذي خططتُ له، مع توراك ودي كامب وفيدياس، سيكون ممتعاً بالفعل؟ سأبدو مثل سيد المنزل الذي يدعو أصدقاءه إلى بيته. لم نخرج اليوم نظراً لأن المطر قد هطل، لذا لم نجد من وسيلة لنقتل الوقت سوى إلهاء أنفسنا بتجاذب أطراف الحديث، آه يا إلهي! لقد عانى «اليوناني» من ذلك، وأنا أيضاً، وكذلك الأطفال. بصراحة، أنا لا أحب الأطفال الصغار، على الرغم من أنهم لطفاء جداً، لا أحبهم لأنهم نسخ مصغرة من الكبار. إن المشاعر الزائفة قد تكون مملة، لكن المشاعر الحقيقية أيضاً يتسرب إليها الملل والفتور في بعض الأحيان، ولقد تأكدت لي اليوم صحة هذه المقولة.

إلى اللقاء، حبيبتي، ألف قبلة. فكري بي (لا داعي لأن أذكرك، أليس كذلك؟) وأرسلي لنفسك قبلتين حارتين أمام المرآة نيابة عني.

* * *

السبت (10 أكتوبر 1846)

ألا يبدو لك أحياناً أنه ثمة مشاهد بشعة أو تعيسة إلى حدٍّ يجعلنا نرغب في الموت كي لا تحفظها ذاكرتنا؟ يا له من إحساس غريب يداهمني حينما أرى مشهداً مماثلاً!

ترى هل ينتج هذا عن فكري الإبداعي؟ أم بسبب عزلتي التي تكبر يوماً بعد يوم؟ أحياناً، عندما أتأمل رجلاً ما، أتساءل عما إذا كان حقّاً شبيهي، ثم أشرع في البحث عن نقط تشابه محتملة بيني وبينه، فأجد فرقاً شاسعاً بيننا كما لو كنا ننتمي إلى كوكبين مختلفين!

حينما ستصلك رسالتي هذه، ستكونين بلا ريب قد قابلت دي كامب، فأخبريني عن رأيك فيه والانطباع الذي خَلَّفَتْهُ فيك زيارته لك، في الواقع، كنت أود أن أكون معكما، أنا واثق من أنكما شعرتما بالارتباك..

تقترحين علي أن نهرب معاً، أنا وأنت، لنعيش في رودس أو سميرنا، آه! إن أحلاماً كهذه تتسبب للمرء في الشقاء! كم حلمت بأحلام مشابهة! وكم طمحت إلى رحلات بعيدة، كنت أرغب في العيش على ضفة شاطئ استوائي، أو خيمة في الصحراء ممتدة الأطراف، وكم راودتني أحلام اليقظة طيلة أيام وأنا جالس بالقرب من مدفأتي، أتخيلني أطارد النمور، وأسمع سيقان البامبو تتكسر تحت قوائم الأفيال.. إنك تسألينني هل سأرغب في العيش معك هناك؟ أجل، ولكن هل سننسى موطننا وذوينا؟ إن الطبيعة

البشرية بائسة ومثيرة للشفقة، إذ بمجرد وصولنا إلى هناك ستنتابنا الرغبة في العودة إلى هنا، لقد عشتُ سنوات عديدة وأنا مغمور بالنعم والسعادة، ورغم ذلك كنت أجد نفسي أستحق الرثاء! لمَ؟ الرب وحده يعلم! حكى لي صديق قضى ثمان سنوات في الهند، وكان يعود بين الفينة والأخرى إلى فرنسا، أنه عندما كان في كالكوتا، اعتاد أن يمضي يومه بأكمله وهو مستلق فوق خريطة تمثل باريس، لكن عندما كان يعود إلى باريس، كان يصيبه الضجر ويحن إلى كالكوتا، هكذا هو الإنسان، إنه يزهد دوماً في الحاضر الذي يملكه ويحن إلى الماضي البعيد ثم يرغب في نسيانه ويبدأ في التخطيط للمستقبل، تماماً مثلما يتعب من قيظ فصل الصيف فينتظر حلول فصل الشتاء لكن عندما يأتي المطر يجتاحه الحنين والندم على أماسي الصيف الصحوة.

أشكرك عزيزتي الطيبة لأنك عرضت علي أن ترسلي إلي بعض القهوة، لكنني أؤكد لك أني لست بحاجة إليها، لأنني استهلكت منها فيما مضى ما يعادل كل الفناجين التي كان من الممكن أن أشربها طيلة حياتي! إذ حينما كنت أقطن بباريس أدمنتها إلى درجة أنني كنت أشرب يومياً إبريقاً كبيراً! لطالما أثارني الإفراط في كل شيء، سلباً وإيجاباً، إلا أنني الآن أقلعت عن شربها، منذ ما يناهز الثلاثة أعوام، احتفظي إذن بحصتي من قهوتك لشخص آخر، وإذا ما استلطفتِ دي كامب فامنحيها له.

حدثيني عن مسرحيتك، أنا سأكون أول الحاضرين في عرضها الافتتاحي! آه، كم سيخفق قلبي عندما سيُرفع الستار! أجل، سأكون حاضراً معك لأواسيك إذا ما أهانك الجمهور، يا حبيبتي المسكينة، أو لأحضنك بين ذراعي بعدما تحصدين إعجاب الجمهور وتصفيقاته الحارة، هل تخيلتِ هذا المشهد مسبقاً؟ أنا أحلم به منذ زمن..

مرّ شهر على لقائنا في مانت، ويهيأ إلي أنه قد مرّ عام! لكل منا تقويم روحي خاص يقيس به الزمن.. هكذا، تستحيل بعض الدقائق أعواماً، وتبدو بعض الأيام الزاخرة بالأحداث المؤثرة طويلة كما لو كانت قروناً! لذا فأنا أتجنب الأحداث التي من شأنها أن تسبب لي المعاناة، كما أتجنب الانجذاب إلى كل الأشياء الخطيرة، ببساطة لأننا إذا ما سقطنا في هذه الهاويات سيصعب علينا انتشال أرواحنا منها.

إلى اللقاء حبيبتي الغالية، ألف قبلة.

***

الثلاثاء (13 أكتوبر 1846)، الثامنة صباحاً

أخبريني إذن عن رأيك في دي كامب، هل توافقتما؟ وهل تحدثتما عني؟ إنني أنتظر منك رسالة مطولة تحكين لي فيها عن لقائكما..

لماذا لا تنفكين عن توجيه اللوم إلي يا عزيزتي؟ ترى ما الذي فعلته لأتسبب في بكائك على الدوام؟ لو كنت بالقرب منك، كنت سأعانقك وأمسح دموعك، ولكن المسافات الفاصلة بيننا تجعل القبلات التي أبعثها إليك تتجمد في الهواء، لذا تعجزين عن رؤية مدى حبي لك في رسائلي التي قد تصلك متأخرة أحياناً..

إنها تمطر بلا توقف منذ ثلاثة أيام، السماء رمادية، الطرقات مُوحلة، وأوراق الأشجار تتطاير بفعل الرياح، ها هو ذا فصل الشتاء يعلن قدومه، لتحل معه الأيام الطويلة التي يلفها الصمت، والأمسيات اللانهائية التي نقضيها بالقرب من المدفأة. آه، كم صار منزلنا فارغاً بعدما كان يعج بالناس! إذ إن فصل الشتاء يشعرنا بِفَدَاحَةِ غياب أحبتنا.

أشعر بحزن لا يضاهى منذ ثلاثة أيام، على الرغم من أنني أعمل كثيراً، لما يقارب عشر ساعات متواصلة يومياً، إلا أن روحي يفتك بها الوجع والمرارة، لم أصارح أي شخص بما أكابده، لأن لكل منهم أوجاعاً تفوق وجعي، وعلى أية حال لم أعتد على إظهار ضعفي للآخرين وذرف الدموع أمامهم. الضجر يجتاحني، كنت أنوي أن أقصد باريس في الأيام القادمة

لأمضي بها أسبوعاً على الأقل، كي أنعم بحبك وأتزود منك بالدفء، إنني أنتظر بفارغ الصبر أن تسنح لي الفرصة لزيارتك، والانتظار يعذب روحي..

قلتِ لي إنك ذهبت مؤخراً لمشاهدة مسرحية «دون غويزمان» للمؤلف «أدريان دي كورسيل»، إنني أعرف أدريان هذا بحكم أنه كان رفيقاً لصديقنا دي كامب الذي طرده ذات يوم من منزله لاقتناعه بأنه ما من شيء جيد في مصاحبة شخص كاره للبشر مثل أدريان، إضافة إلى أن أدريان ذو فكر مبتذل وخامل، وبالتالي فإنه ينتمي إلى أسوأ نوع من الأدباء والفنانين.

ليلة أمس، قبل أن أخلد إلى النوم قرأت كتاباً للأديب «جان دي لا برويير»، من الرائع أن يغوص المرء من حين إلى آخر في أعمال من هذا النوع الرفيع، يا لأسلوبه! ويا لروعة جمله! ويا لوضوح ونقاء فكره! لم يعد هناك مثل هذه الكتابات في زمننا، ورغم ذلك فإن الناس يقرؤونها مرة واحدة فقط، مع أنه يلزمنا أن نعيد قراءتها مراراً وتكراراً إلى أن نحفظها عن ظهر قلب!

أنا واثق من أنك قادرة على تأليف رواية عظيمة، بسيطة، رومانسية وساخرة في آن واحد، وبالتالي رواية حقيقية! عليك أن تشتغلي على هذه الفكرة بعد عرض مسرحيتك، وعندما تطلقين العنان لفكرك، ستنجحين في تنفيذ عمل جيد، لذا عليك أن تبدئي في الاشتغال على هذا المشروع الروائي ما إن يختمر المخطط الأولي في ذهنك.

توصلتُ بالحزامين، هل تودين أن أكلف دي كامب بأن يمنحك أحدهما أم تفضلين أن تنتظري زيارتي لباريس كي أهديه لك بنفسي؟

إلى اللقاء حبيبتي، ألف قبلة دافئة.

***

الأربعاء (14 أكتوبر 1846)، الحادية عشرة مساء

أنا مسرور لأن دي كامب قد نال إعجابك، إنه إنسان ذو طباع حميدة ونبيلة اكتشفتها مذ تعرفت عليه لأول مرة، ولهذا تمسكت بصداقته كما لو كان اكتشافاً عظيماً، إضافة إلى ذلك، ثمة الكثير من نقاط التشابه والتقارب بيني وبينه على المستوى الفكري، وها هي ذي قد مرت أربع سنوات على صداقتنا، إلا أنني أشعر بأننا نعرف بعضنا البعض منذ قرن من الزمن، سيما أننا عشنا معاً أحداثاً عديدة، وكنا معاً في ظروف مختلفة، في السراء والضراء، فأحبيه كأخ لي وثقي به كما تثقين بي وأكثر، لأنه أفضل مني كونه أكثر شهامة ولطفاً، وتصرفاته النبيلة تنبع من قلبه الطيب، أما أنا، فإنني مقارنة به أبدو فظّاً، شعبياً، ومتقلب المزاج. لا تصدقي ما قد يقوله لك عن قدراتي الأدبية، لأن حبه لي يجعله متحيزاً وغير موضوعي بشأني، كما أنه يعتبرني مرشده إلى حدٍّ ما، لأنني انتشلته من مستنقع نشر الحلقات المتسلسلة لقصصه في الصحف، حيث كان من الممكن أن تدفن موهبته إلى الأبد، ووجهت اهتمامه إلى الدراسات الجادة إلى أن صار شغوفاً بها، لقد قطع أشواطاً كبيرة في ظرف العامين المنصرمين، وصارت لديه الآن موهبة رائعة في الكتابة، وستنمو موهبته أكثر فأكثر إلى أن تصبح موهبة عظيمة، ومع أنه يحظى بكل هذه الصفات الحميدة والمميزة، فإنه يظل متواضعاً.

مذ فقدتُ أبي وشقيقتي فقدت طموحي وكأنه قد دُفن معهما في المقبرة

نفسها، والآن لا أعلم ما إذا كان أحدهم في المستقبل سيطبع ولو سطراً واحداً مما أخطه، وصدقاً لا يهمني هذا الأمر، لأنني فقدت شهيتي للكتابة، كما لا يهمني النجاح! فما يهمني فعلاً هو الاستحسان الذي أستشعره أنا تجاه كتاباتي، لكن ربما سأفقد حاجتي إليه أيضاً، مثلما فقدت الحاجة إلى إثارة إعجاب الآخرين، لذا فإنني أعلق آمالي على نجاحك أنت، فاشتغلي، وتأملي طويلاً الحياة، وكثفي أفكارك، أنت تعلمين أن الجمل الرائعة لا تكفي لوحدها، لأن وحدة النص ومجموعة الأفكار التي يتضمنها هي الأهم، وهذا ما يفتقر إليه جميع كُتَّابُ عصرنا الحالي، الكبار منهم كما المبتدئون، إذ إنه من الوارد العثور في كتبهم على آلاف المقاطع الجميلة، ولكن هذا لا يجعل من كتبهم تحفاً أدبية، لذا فحافظي على سلاسة وقوة أسلوبك كي تنجزي تحفة أدبية خالدة، واعذريني على هذه النصائح، ولكنها نابعة من قلبي لأنني أود أن تحظي بكل ما كنت أتوق للحصول عليه من نجاح ومجد.

ما من أخبار جديدة من اللجنة المكلفة بتمثال والدي، غداً سنعود إلى روان لنهيئ منزلنا الشتوي.

سأستفسر عن موعد اجتماع اللجنة، وأخشى ما أخشاه أن يؤجلوه إلى بداية نوفمبر، أي بعد خمسة عشر أو عشرين يوماً، ولكنني لا أظن أنهم سيتأخرون أكثر. لا زالت تمطر، السماء حزينة، مثلي تماماً!

أشتغل بجدية حالياً، ولدي العديد من الكتب التي يتحتم علي إنهاؤها رغم أنها تصيبني بالملل، ولكن لا بدّ من إتمامها، على أمل أن أستفيد منها فيما بعد. أخطّط للعودة إلى الكتابة في فصل الربيع القادم، رغم أنني ما زلت متردداً..

أعتقد أن تناول الكاتب لموضوع ما يتماهى مع إعجابه بامرأة، والحالة التي تتملكه خلال الكتابة تشبه الرعشات التي يسببها له الخوف الذي يتسرب إليه حينما تدنو منه محبوبته، إنه خوف ممزوج بالرغبة، لكن من سخرية القدر أننا نحن الكُتَّاب لا نجرؤ في بعض الأحيان على ملامسة رغباتنا!

هذا المساء أعدت قراءة جزء من كتاب «الشهداء» للأديب «فرانسوا رينيه شاتوبريان»، يا له من كتاب رائع، ويا لأسلوبه الشعري!

إنك تحدثينني عن «ألبير أوبير» والسيد «غاشون دي مولينز»، عليك أن تتجاهلي كل هؤلاء، لماذا تقلقين من نعيق هذه الغربان؟ إن قراءة المقالات النقدية مضيعة للوقت، وفي نظري، لا جدوى من هذه المقالات عدا مضايقة الكُتَّاب والاستخفاف بعقول الجمهور، علاوة على أن مُمتهني النقد قد لجؤوا إليه في الحقيقة بسبب عجزهم الإبداعي والفني، تماماً كما يصبح المرء مُخبراً حينما يفشل في أن يصير جندياً، أرغب في معرفة ما هو القاسم المشترك الذي يجمع بين الشعراء (على مرّ العصور) وبين أولئك الذين قاموا بتحليل مؤلفاتهم؟!

إلى اللقاء حبيبتي، ألف قبلة على جبينك.

* * *

السبت (17 أكتوبر 1846)، الواحدة صباحاً

أنت ترغبين في أن تجعليني مغروراً إلى أقصى حدٍّ، أنا الذي يتهمني الجميع سلفاً بأنني مغرور إلى حدٍّ كبير! ها أنت تُبجلينني، تخصينني بمكانة مميزة وترفعينني عالياً في سماء حبك، يلزمني أن أتشبث برجاحة عقلي كي لا يجتاحني الدوار وأفقد صوابي وأنا أراك تصغرين نفسك أمامي! تقولين إنني أفاجئك وأثير دهشتك! ولكن من أنا؟ ما قيمتي؟ وما الذي فعلته كي أستحق مديحك هذا؟ أرجوك لا تخصيني مرة أخرى بكلماتك الاستثنائية التي تنضح بالمجاملة، لأن كلماتك هذه تشعرني بالإحراج.

أخبرني مكسيم دي كامب أنه حَزِنَ لمعاناتك جراء حبك لي، اعلمي أنه صديق رقيق جداً، بوسعه أن يواسيك بكلماته، ويخفف عنك عذاباتك وما تشعرين به في أيامك الصعبة، كما أنه سيؤكد لك أنني أحبك، وأنني كثيراً ما أحدثه عنك..

سألتني في رسالتك الأخيرة إذا ما كنت أتذكر يوم التاسع والعشرين من يوليو، آه! وكيف عساني أن أنسى هذا اليوم؟ لقد غمرت قلبنا شعلات الحب في ذلك المساء، وفي المساء الذي تلاه، مساء الخميس، كانت جولتنا في العربة لا تنسى! أتراك تتذكرين الصمت الطويل الذي لفنا والعربة تعبر شارع الشانزليزيه، وأنت ترمقينني بنظرة قاتمة وحنونة في آنٍ واحد، وأنا أرى بريق عينيك ينير عتمة الليل، كثيراً ما أستعيد هذه الذكرى،

ذكراك، سأقتبس من الشاعر الهندي «كاليديازا»: «إن قلبي يترنح أمامك، كما يترنح لهيب المشعل الذي نحمله عكس تيار الرياح».

لا تقلقي على وضعي الصحي، سبق أن قلت لك إنني سأعمر طويلاً، وكما تعلمين فقد مررت بحوادث شتّى وأمراض لا تُحصى، وشفيت منها ولم يتبق لها أي أثر يذكر، واتبعت أنظمة حياتية مختلفة وعشت فترة صباي وأنا أجرب كل شيء: العمل، الكسل، الإسراف والتقشف.. ولم أحس أبداً بالإرهاق الفكري، بل إنني في إحدى السنوات الماضية كنت أشتغل بانتظام لمدة خمس عشرة ساعة متواصلة في اليوم، طيلة عشرة أشهر.. أما بالنسبة للإرهاق الجسدي، فإن الطريقة التي نشأت عليها جعلتني أتماهى مع عقيد فرقة مدرعة، ولولا وهن أعصابي وحساسيتي التي تقربني من صفات البشر الفانين، كنت سأتمتع بقوة جسدية تقارب قوة الحمالين في الأسواق. إذن لا تخشي أن يصيبني مكروه يا حبيبتي المسكينة، لست بحاجة إلى ممارسة الرياضة كما أنه بإمكاني أن أقضي أسبوعين معتكفاً في مكتبي، دونما حاجة إلى الخروج لأستنشق هواء الطبيعة.

إنني أعيد قراءة الأبيات التي كتبتِها عن لقائنا في «مانت»، ولست أدري إذا ما كان الحب يعميني (مثلما يحدث معك) ولكن يهيأ إلي أنك لم تكتبي قط أبياتاً أروع من هذه، إنها بصدق أبيات جميلة للغاية!

إنك تحبين الوشاحات الزرقاء، لقد عثرتُ على وشاح أزرق لم أعد أستعمله منذ فترة طويلة، سأجلبه لك كهدية مع ديكورات المكتب الزجاجية التي وعدتك بإهدائها لك كتذكار.

أما فيما يخص اللجنة، فقد قررت ألا أنتظر أكثر.. لذا إذا لم يعقدوا

اجتماعهم في مستهل شهر نوفمبر فإنني سأقصد باريس، لقد أثاروا غضبي! لكنني أتمنى أن يحددوا موعد اجتماعهم في غضون الأيام القليلة القادمة..

لا زالت تراودك فكرة قدومك إلى هنا للاعتناء بي إذا ما مرضتُ، أعترف بأنني لا أحبذ هذه الفكرة، بسبب الضجة التي ستثيرها زيارتك لي، إضافة إلى ذلك، لم أفهم أبداً هوس الناس بإظهار جروحهم لأحبتهم رغم علمهم بأن رؤيتهم لهذه الجروح ستتسبب في معاناتهم، لمَ يتحتم علينا أن نجعل أحبتنا يشهدون معاناتنا من الحمى والأوجاع التي تفتك بنا؟ إن هذه الممارسة الشائعة تنم عن أنانية مثيرة للسخط، سأعترف لك أيضاً بإحدى نقط ضعفي: سأشعر بالحرج منك وأنا مريض، كوني أجد دوماً أن المرض حالة سخيفة، وكذلك سأستحي من رؤيتك لي في هذا الوضع المثير للشفقة، ولكن أنَّى لي أن أمرض؟ وحبك لي بمثابة طلسم يحميني من كل الشرور، وعيناك ترياق لكل الأمراض والآلام؟

إلى اللقاء يا حياتي، أرسل لك قبلة طويلة، وأمرّر يدي على ضفائرك المعطرة..

***

صباح الثلاثاء (20 أكتوبر 1846)

ماذا هناك؟ ما خطبك؟ هل أنت مريضة؟ هل ضاعت إحدى رسائلي أم لم تصلني رسائلك؟! لم أتلق منك أية رسالة منذ صباح يوم الخميس الماضي، أرجوك، أجيبيني، أجيبيني على الفور!

إنني فريسة للقلق الشديد والظنون الرهيبة، ولقد أتعبتني تخيلاتي إلى حدٍّ أنني ما عدت أعرف ما الذي أقوله، وفقدت كذلك قدرتي على الكتابة إليك لأني لا أدري ما عساني قائل! ولا أملك أن أقول لك شيئاً عدا أنني أحبك، أعشقك، وأقبلك..

مرت أربعة أيام طويلة، أيام أحرقتني فيها نيران الانتظار والفزع، آه! لا تكرري هذه التصرفات، أتوسل إليك!

إلى اللقاء، إلى اللقاء، ألف قبلة حنونة، إن قلبي يدق بهلع كما لو أن مكروهاً ما قد أصابك!

***

الأربعاء (21 أكتوبر 1846)، الحادية عشرة مساء

إنني أرد الآن على رسالتيك: رسالة صباح يوم الأحد ورسالة يوم الإثنين، لقد حدث خطأ في مكتب البريد عندما أرسل الرسالة الأولى إلى قرية «كروازي لاهاي» الواقعة على الطريق المؤدي إلى «نوفشاتيل». فاكتبي في المرة المقبلة «روان» بأحرف أكبر و«كرواسيه» بوضوح.

لا، لن أقوم بمعاتبتك بسبب لومك المتواصل لي، كل ما بوسعي قوله لك إنك لن تحسي بمدى ظلمك لي إلا إذا ما تعرضت بدورك للظلم! أنت تخشين أن أرسل لك كلمات قاسية، حسناً، لن أفعل، إذ سأرسل لك فقط قبلات ولمسات حانية. وددت أن أرسل لك أغنية دافئة لتهدهد روحك، تماماً كما نفعل مع الأطفال عندما نضعهم في أسِرَّتِهم قُبيل النوم، أو أن أبعث لك عطراً من تلك العطور الرائعة التي تبدو وكأنها تبعث الحياة في روحك. لماذا يا عزيزتي، لا ترغبين في أن أقول لك مرة أخرى إنني أحبك؟ من المؤسف أن المشاعر الحقيقية نادراً ما تُصدق، لكن لو كنت قد تصنعتُ، وكذبت، وبالغت، لما كان لديك الآن كل هذه الشكوك التي تنخرك. أنا حائر، لا أعلم ما عساني قائل لك، وأخشى أن أستخدم كلمة قد تدمي قلبك الحساس، لكن هل تظنين أنني أكذب عليك؟ لو لم أكن أحبك، هل ستكون لدي الرغبة في بعث رسائل مثل تلك التي أرسلها لك والتي أشاركك كل شيء من خلال سطورها؟ وهل كنت سأهتم بتهذيب

أسلوبي وإضفاء المزيد من الانسيابية على جُملي! لا، لا، أنت نفسك لا تصدقين ما تقولينه! إن ما يجعلك تقولين كل هذا هو الملل، الرغبة وتعاسة الحياة. ألَمْ تعرفيني بعد؟ صحيح أنه من الصعب سبر أغوار نفسي، ولكن ألا تثقين بي؟ أنا أثق بك، ومتأكد من صحة ما تحكينه لي عن حاضرك، عن مستقبلك، وعن ماضيك أيضاً. قولي لي: هل سبق أن طرحت عليك سؤالاً واحداً عن ماضيك؟ ما الفائدة من ذلك؟ هل يهمني هذا؟ أنا أقبله كما هو، ولا ألقي بالاً إليه! كما أنني لا أغار من أي شخص عرفتِه قبلي، إذ يكفيني أن أفكر فيك طوال اليوم، إن صورتك تزرع البسمة في قلبي، ترافقني في كل لحظة، تلفني بالحنان، وتساعدني على النوم بهناء، وهي التي توقظني، وتصبغ يومي بلون وردي لطيف. لو كنت تأملين أن تجدي فيّ حماس المراهقين وعاطفتهم المتفجرة، كان عليك أن تتجنبي هذا الرجل الذي صارحك منذ البداية بأن روحه قد شاخت قبل الأوان، والذي كشف عن عيوبه لك قبل أن يستجدي حبك. لدي خبرة واسعة في الحياة، يا لويز، خبرة كبيرة. إن الذين يعرفونني عن كثب يندهشون عندما يجدونني بهذا النضج، وفي الحقيقة، أنا أكثر نضجاً بكثير مما يعتقدون. قبل ثلاثة أشهر فقط، كنت أظن أنني قد تخلصت من العواطف، وكانت لدي أسباب قوية لأصدق ذلك إلى أن وقعت في حبك، أتعتقدين أن مشاعري نحوك لم تكن إلا نزوة عابرة؟ أنا رجل مختلف عن الرجال الآخرين، لذا يجب أن أحظى بحب مختلف عن الحب السائد والاعتيادي. لطالما أطلق علي العديد من الناس أمام الملأ أوصافاً حميدة لا حصر لها، مثلما ألصقوا بي آلاف العيوب المبتذلة، وكانت جميع هذه الأوصاف والعيوب لها نصيب من الصحة، عندما ننظر إلى الحقيقة من زوايا جانبية، فإننا نراها دوماً

بشكل غير صحيح، قلة من الناس بوسعهم أن ينظروا إلى الحقيقة مباشرة، وأنت تتصرفين مثل الآخرين إزائي! حسناً، اعلمي أنك حتى لو حاولتِ أن تتوقفي عن حبي فإنك ستظلين تحبينني رغماً عنك، وهذا يجعلني أشعر بالفخر، إن الحب يتماهى مع الجرح الذي لا بدّ من أن يترك أثراً، وأنا أؤكد لك أن الأثر الذي خلفه حبك سيظل محفوراً في داخلي ما حييت، وحتى لو مرت عشر سنوات دون أن نلتقي، ستنجذب ذراتنا بعضها إلى بعض فور تلامس جسدينا، وستمتزج روحنا فور تلامس شفاهنا. هل تتذكرين ليلة مانت؟ هل تتذكرين صيحة اندهاش أطلقتها في لحظة ما؟ كنت متعجبة من قدرة الإنسان على الحب، أليس كذلك؟ كنت تقولين إنك لم تتصوّري أبداً أن الحب بوسعه أن يصل إلى هذا الحدّ...

الآن، إذا قلت لك إنني هادئ، وإن أعصابي لم تعد تثور لأتفه الأسباب، فإنك تستائين وتتهمينني بالبرود، ببساطة هذا مرده أنني تعلمت منذ فترة طويلة كيف أضبط أعصابي. أيضاً، عندما كنت طفلاً، كنت جباناً للغاية، وكان الظلام يثير رعبي، كما كنت أعاني من الدوار عند محاولتي ارتقاء السلالم، ولكن منذ السنة الأولى في المدرسة الثانوية، صرت أهرب ليلاً لأتجول لوحدي بين أروقة المدرسة وأنا أشعر بخوف شديد، وكل خميس كنت أقصد أبراج الكنائس وأجول في شرفاتها العالية، معرضاً نفسي لخطر داهم، فعلت كل هذا لأصبح شجاعاً، ولقد أصبحت كذلك بالفعل، وبالطريقة نفسها عودت نفسي على تحمل الخمر والسهر والزهد الشديد والصيام لفترات طويلة جداً، أما بالنسبة لمشاعري، فقد قمت بتقويتها بذاتِ الطريقة، ولهذا قبل وفاة والدي وأختي، تخيلت مسبقاً أنني حضرت مراسم دفنهما، وعندما حل يوم جنازتهما الفعلية، شعرت

وكأنني سبق وأن شهدت الحدث نفسه، ربما قال بعض البرجوازيين الذين كانوا هناك إنني لم أتأثر كثيراً، أو إنني لم أتأثر على الإطلاق. وبخصوص البرجوازيين، فأوقفي مزاحك بخصوص الوريثات الثريات في محيطي هنا، أتعتقدين أنني غبي إلى درجة أنني أهتم بكسب احترام أبناء بلدتي أو أطمح إلى الزواج من بناتهم؟ آمل بشدة ألا أتزوج أبداً طيلة حياتي، ويمكنني إن رغبتِ أن أقسم لك على ذلك، وسأوافيك بالأسباب متى شئتِ. لقد مررت بأوقات كنت فيها بحاجة ماسة إلى المال إلى درجة أنني كنت مستعداً للزواج من أية فتاة ثرية، لكنني الآن بعدما أصبحت حكيماً، قررت أنني لن أتزوج أية فتاة كانت مهما كانت ثروتها كبيرة، ولو مقابل مليون فرنك! إن جشعي في فترة صباي تحول إلى زهد، ولذلك صرت رجلاً قليل الاهتمام بالثروة. إنه أمر مؤسف، فقد كانت لدي الفرصة لأمتلك قصراً، ولأكون شخصاً مرموقاً، محبّاً للفنون وراعياً لها. لكنني أعلم أنك لا تحبين (مثل والدتي) أن أقاسمك هذه الأفكار، غريب كيف أن الأشياء التي أحبها لا تروق الأشخاص الذين أحبهم..

إلى اللقاء حبيبتي الجميلة، أرسل لك قبلة كبيرة لعلها تساعدك على تخطي جميع أفكارك الجنونية.

لن أحدثك عن اللجنة، لأنك تتهمينني باستغلال هذه التأخيرات واستخدامها كوسيلة للتهرب منك، ولا عن موعد قدومي إلى باريس من أجل «متابعة أموري»، إذ ما من أمر في باريس يهمني ويشغلني سواك.

* * *

الجمعة (23 أكتوبر 1846)، منتصف الليل

لست أزدري المجد أبداً، لأنه ليس بمستطاعنا ازدراء ما لا يمكننا بلوغه، إن قلبي قد خفق جراء التَّوْقِ إلى بلوغ هذا المجد، بشكل يفوق خفقان قلوب الآخرين الطامحين بدورهم إلى تحقيقه، فيما مضى، قضيت ساعات طوالاً وأنا أحلم بإنجاز انتصارات مذهلة، إلى حدٍّ أنني كنت أنتفض من مكاني حينما يهيأ إلي أني أسمع الدَّوِيَّ الذي خَلَّفَته نجاحاتي، غير أنني لا أعلم لِمَ استيقظت، ذات صباح جميل، متحرراً من هذه الرغبة، وأنا أشعر بأني أكثر اكتفاءً مما لو كنت قد أشبعتها بالفعل. وإذ ذاك، أدركتُ حجمي الحقيقي، ووظّفت عقلانيتي بكاملها في ملاحظة طبيعتي الإنسانية، بعمقها وسيما بحدودها، وحينئذ، بدا لي الشعراء الذين أكِنُّ لهم الإعجاب والإجلال أعظم وأبعد بكثير مني، ولقد انتشيتُ بنِيَّةٍ صادقة نابعة من قلبي بتواضعي هذا، تواضع بوسعه أن يجعل أحداً آخر غيري يموت غيظاً، لأنه ببساطة، عندما نملك قيمة أدبية، يستحيل البحث عن النجاح ضرباً من ضروب الإضرار الذاتي اللامحدود، بينما من الوارد أن يصير السعي إلى المجد نوعاً من الضياع الكلي..

ثمة نوعان من الشعراء، النوع الأول هم العظماء، النادرون، السادة الحقيقيون، الذين يلخصون الإنسانية، دون أن ينشغلوا بذواتهم أو برغباتهم الخاصة، إلى حدٍّ أنهم يُقْصُونَ شخصياتهم لينصهروا في بوتقة الآخرين، وهكذا، فإنهم يعيدون إنتاج الكون، الذي يلوح انعكاسه في أعمالهم،

هذا الانعكاس البرَّاق، المتنوع، المتعدد، كما تنعكس السماء بأكملها، بنجومها وأفقها الشاسع، على أدِيم البحر.. أما النوع الثاني من الشعراء، فهم أولئك الذين يكفيهم الصراخ بحثاً عن التناغم، والنحيب بغرض استجداء العواطف، والانكفاء على ذواتهم ليحققوا الخلود الأبدي، ربما لم يكن بمستطاعهم أن يصلوا إلى نجاح أكبر لو كانوا يتبنون طريقة مغايرة، من ناحية أخرى، إذا كانوا يفتقرون إلى الرؤية الإبداعية الشمولية، فإنهم يمتازون بالحماسة والحيوية، وهكذا، فإن عبقريتهم تكمن في طباعهم هذه، على سبيل المثال فإن الشاعر الإنكليزي «لورد بيرون» كان ينتمي إلى النوع الثاني من الشعراء، في حين أن شكسبير كان من النوع الأول الذي يقصي شخصيته في سبيل أبطاله، بحيث لا يمكننا أن نعرف على وجه التحديد الأشياء التي كان يحبها أو يكرهها كشخص، أو نملك فكرة عن أحاسيسه الخاصة، إن شكسبير عملاق مرعب، مما يجعلنا بالكاد نصدق أنه كان كائناً بشرياً! ومن ثَمَّ، أعتقد أن المجد يلزمه أن يكون خالصاً، حقيقياً، راسخاً، تماماً كَمجد شكسبير والشعراء الشموليين/ أنصاف الآلهة، لذا يتحتم علينا أن نرتقي سلم التميز لنصل إلى مستواهم، وذلك بعدما نعمل على تشذيب موهبتنا الفطرية وتطويع مزاجيتنا، أهوائنا، ونزواتنا الغريزية، بحيث تتناسب مع القالب الإبداعي المتعارف عليه. غير أننا، في بعض الأحيان، نعتقد بغطرسة (كما في حالة الشاعرين مونتين وبيرون) أنه يكفي أن نقول ما نفكر فيه وما نحس به كي نخلق إبداعات رائعة، من الممكن أن تكون هذه الجزئية هي الأكثر حكمة لدى هؤلاء الأشخاص المبتكرين، لأنهم بفضلها يقومون بتوظيف صفاتهم الطبيعية دونما حاجة إلى التصنع، وبالتالي، فإن أي شخص يجيد الكتابة على نحو صحيح، سيكون بمقدوره أن يؤلف كتاباً ممتازاً، على الأرجح كتاب مذكرات أو سيرة ذاتية، شريطة أن يكتبها بصدق تام.

بالرجوع إلي، أعترف بأنني لا أجد نفسي بلغت الارتقاء الكافي لتأليف أعمال إبداعية حقيقية، ولا غريب الأطوار كفاية كي أنكفئ على ذاتي وأملأ نصوصي بتجربتي الشخصية لوحدها، وبحكم أنني لست بارعاً في جذب النجاح، وأيضاً، لا أجدني عبقرياً لأحصد المجد، أصدرت حكماً على نفسي بالكتابة من أجلي فقط، من أجل الترويح عن نفسي، مثلما ندخن وكما نمارس ركوب الخيل بغرض الترفيه..

ألا أقوم بطبع سطر واحد مما أكتبه في الوقت الراهن هو احتمالية شبه مؤكدة بالنسبة إلي، علاوة على أن أبناء إخوتي لن يرغبوا في أن أُخَلِّفَ أعمالاً أدبية للأجيال القادمة (تماماً كما لا أرغب أنا في أن أترك ذرية)، لذا، أتخيل أن أبناء إخوتي سيحولون رواياتي الخيالية إلى قبعات كلاسيكية ثلاثية الأطراف ويهدونها لأحفادهم، وكذا سيحيطون مواقدهم بحكاياتي عن الشرق، قصصي التراجيدية، وكتاباتي الغامضة، إلخ.. دون أن أنسى الهذيان الذي أخطه بجدية كبيرة على أوراق بيضاء من النوعية الجيدة، إذن، ها هي ذي، يا عزيزتي لويز، بشكل نهائي، رؤيتي العميقة لهذا الموضوع ولذاتي.

لست بحاجة إلى أن أحظى بالتأييد بخصوص تأملاتي عن الكتابة عبر التفكير في مكافأة ما، والأغرب أنني، كشخص مهتم بالفن، ما عدت أؤمن به ولا بأي شيء آخر، لأن جوهر معتقدي بهذا الشأن هو ألا يكون لدي أي نوع من المعتقدات، ما عدت أؤمن حتى بنفسي، ولا أعلم إذا ما كنت غبياً أو روحانياً، طيباً أو شريراً، مُقَتِّراً أو مُبَذِّراً، إنني مثل جميع الناس، أتأرجح بين هذا وذاك، قد تكون ميزتي هي أنني أدرك هذا الوضع، أما عيبي فهو أنني أملك الجرأة لأصرح بذلك، على أية حال، هل نملك الثقة الكافية بأنفسنا؟ هل نحن واثقون بما نعتقده وما نشعر

به؟ أنت التي تحبينني حالياً، أنت التي تحبينني إلى حدٍّ أنك ترغبين في الكذب على نفسك وممارسة الإنكار، أتراك تحبينني لذاتي أم تحبين رجلاً آخر خِلْتِ أنك وجدته فِيَّ؟ هذا الرجل الكامن بداخلي والذي لم أتعرف عليه من قبل..؟

سامحيني إذا ما كنت مخطئاً، ولكن يبدو لي أنه هناك نبرة ملل بين سطور رسالتك الأخيرة إلي، وكأنما أفكاري تتعبك، حسناً، إذا لم تعودي ترغبين بي يوماً ما، وإذا ما تَبَيَّن لك أن السراب المحيط بي قد خدعك، تعالي لتتربعي عرشك في قلبي/ مَوطنك، حيث ستجدين مكانك محفوظاً دوماً.. سأعالج بالكلمات التي أعرفها عن ظهر قلب الجِراح التي خلفتها في روحك الأوهام التي تطوقك، وإذا لم أنجح في علاجها، فإنني سأمنعها من أن تجعلك فريسة للمعاناة..

لماذا نجبر أنفسنا على تحمل ما يفوق طاقتها يا عزيزتي المسكينة؟ ولِمَ لا نتقبل الحياة كما هي ونرضى بأوضاعنا؟ لنحب بعضنا بصدق دون أن نقحم في علاقتنا الكثير من التنميق؟ أتعلمين أنني اليوم، لم أفعل شيئاً سوى التفكير فيك، إذ عندما استيقظت هذا الصباح، استعدت ذكرى الاختلاجات التي أحسستها في «مانت»..، ظللتُ تحت وقع تأثير هذا التأمل طوال اليوم، ولكنك لم تعودي تريدين أن أتحدث عن كل هذا (عَمَّ سأحدثك؟)، لنتحدث إذن عن شيء آخر، أنت محقة، كان من الأفضل لك ألا تقعي في حبي، إذ إن السعادة تشبه مُرَابِياً يجعلنا ندفع حمولة ثقيلة من المِحَنِ مقابل إقراضه لنا ربع ساعة من الفرح..

إلى اللقاء عزيزتي لويز، قبلاتي الحارة.

* * *

الأحد (25 أكتوبر 1846)، الحادية عشرة مساء

أعتقد أنك تودين إجباري على كتابة كلمات قاسية لك، إنك تبذلين جهداً كبيراً لدفعي إلى القيام بذلك، حسناً، إذا كان هذا هدفك، فأنا لن أحققه لك لسببين: السبب الأول هو أنني لا أجد كلمات قاسية لأوجهها لك، أما السبب الثاني فهو أنني حتى لو عثرت عليها فسأكتمها بداخلي، لست أدري إذا ما كنتِ على صواب عندما اتهمتني بكوني أفتقر إلى الحب، لأن الرب المطلع على ما في القلوب هو الحَكَمُ الوحيد، وربما ينصفني لأن الذنب ليس ذنبي بحكم أنك أنت المخطئة، صدقيني إذا ما توقفتُ يوماً عن حبك، ولو استحال حبي كرهاً لك، فإنني لن أقلع أبداً عن معاملتك بالرقة نفسها أيتها الروح العزيزة، وسأظل صريحاً معك كما كنت دائماً، أدرك أنني أخطأت أيضاً، إذ كان يلزمني أن أكون أكثر حماساً، وأن أسمو بِرُوحي قليلاً، وأن أتجمل بقَول كلمات منمقة أكثر، حينها كنتِ ستجدين أنني أستحق حبك.

لويز، أرفعُ نحوك عينيَّ اللتين تلهبان قلبك وترسمان الابتسامة على محياك عندما أكون بجانبك، أرجوك، أتوسل إليك، لا تكوني قاسية علي وصارمة للغاية، ولا تؤلميني بجَلدك المستمر لي، قولي لي: ماذا فعل لك هذا القلب المسكين؟ إذا لم تجديه ملائماً لتطلعات قلبكِ، فاتركيه، اقذفيه بعيداً، ولكن لا تهينيه بسبب خيبة الأمل التي تقولين إنه قد سببها لك! هل

أنت متأكدة؟ هل خيبت أملك فعلاً؟ ألست أنا الشخص نفسه؟ هل تغيرتُ؟ ألستِ أنت لويز التي أعرفها؟ أليست روحانا مُتوائمتين ومتوافقتين؟ بمن سأفكر قبل الذهاب إلى النوم كل ليلة؟ هناك شيء غامض وعذب يجمعنا، كما تمتزج رغباتنا وأحلامنا وتتداخل وكأننا روح واحدة في جسدين، قبل خمسة عشر يوماً فقط، كنت ترسلين لي إشراقاتك الفكرية وجُملاً رائعة تفيض رقة وحناناً، وفجأة، ودون سابق إنذار، حينما أخبرتك بأنني لن آتي إلى باريس كوني لا زلت أنتظر قرار اللجنة، صرتِ تنتحبين وما عدت أسمع سوى صدى صرخات ألمك واتهاماتك الجارحة، إن روحك المنكسرة تشبه جندياً مثخناً بالجِراح، كلما حاولتُ لمسها أتعثر بجُرح وأسبب لك الألم.

على سبيل المثال، لماذا تلومينني مُسبقاً بسبب رحلتي الملعونة إلى «بريتاني» رفقة دي كامب؟ أنا لست متأكداً بعد ما إذا كنت سأتمكن من الذهاب إليها؟ لأنه من الوارد جداً أن تفشل تماماً كمشاريعي الأخرى، الكبيرة منها والصغيرة! فقد تحدث العديد من الأمور في غضون عشرة شهور من شأنها أن تمنعنا من ذلك! كأن أمرض أو يمرض مكسيم أو تسوء حالة أمي، أو أي شخص آخر هنا، أو ينقصني المال، إلخ..

لم أخبرك بأمر الرحلة لأنني لست متأكداً إلى حدود الساعة ما إذا كنت سأقوم بها أم لا، إنك تعودين دوماً للحديث عن الأم المحترمة «فوكو»، وتلومينني لأنني اعترفت لك بماضيَّ، إن لومك يشعرني بالاستياء لا لشيء سوى لأنه يؤذيك، لقد خانني التعبير إذن وأنا أحاول توضيح الأمور لك في هذا الجزء! أنا لم أحبب السيدة فوكو أبداً، ويهيأ إلي أن رسالتي إليها كانت واضحة، في حال ما إذا كنتِ قد قرأتها بالفعل، فعلى الرغم

من أنني كتبتها بشكل مهذب، إلا أنه تفوح من سطورها غطرسة فريدة، على أية حال، هذا هو الانطباع الذي خَلَّفَتْهُ بي شخصياً، هناك جملة أود أن أنسخها لك، جملة وردت في رسالتك الأخيرة كي تعيدي قراءتها مرة أخرى، وسأطلب منك أن تستحضري عقلك لِيُقَيِّمَ مدى مُلاءمتها ولطفها: «أود فقط أن أقول لكَ إنني لو لم أعرفكَ، كنت سأحظى بمكانة يمكن أن يعتبرها الجميع مُشَرِّفَةً»، ماذا كنت ستقولين لو أرسلتُ لك كلاماً مثل هذا! إنك تتحدثين دوماً عن معاناتك! لكن على ما يبدو أنا لا أحدثك كثيراً عن معاناتي، لأنك لا تستطيعين أن تتخيلي حجم الألم الذي قد تسببه لي مثل هذه الاعترافات!

ما الذي ترغبين في أن أقوله لك؟ أن أعترف لك بأنني سبب تعاستك، وأنك بدوني وبدون علاقتنا كنت ستحظين بحياة هانئة، إن لم أقل سعيدة، حسناً، فاغفري لي باسم السعادة التي عشناها فيما مضى!

أيتها الرفيقة العزيزة (نظراً لأنك ما عدت تسمحين لي بأن أناديك بلقب سواه)، فاستمري في مصافحة يدي في نهاية كل رسائلك إلي، ترى هل ما زلتِ تودين أن أقبّل يديك كما فعلتُ في لقائنا الأول؟

وداعاً، وداعاً.

* * *

الجمعة (13 نوفمبر 1846)

ماذا أقول لك؟ وما الذي بمستطاعي فعله؟ آه، لقد رفضتِ قبلة الوداع! ترى هل ستقبلين قبلة مني عندما أعود لزيارتك في المرة القادمة؟ وهل ستستمرين في مناداتي بطريقة رسمية؟

هل تعلمين أن دموعك واليأس المؤلم الذي كان يلوح في عينيك، أوجعاني وخَلَّفَا أثراً مريراً في قلبي، إن هذا الوجع يفوق أي وجع تسببت لي فيه اتهاماتك، إهاناتك أو شتائمك.

أتعتقدين أنني لم أتألم وأنا أودّعكِ؟ بلى، ولكنك تصفينني بالأناني لأنني لا أذرف الدموع مثلك، وتتهمينني بالخيانة، وتعاملينني بازدراء لأنني فَوَّتُ الموعد الذي اتفقنا عليه معاً، أعترف لك بأنني لم أحضر إلى ذلك الموعد لأنني شعرت بالخجل، لا شك في أن اعترافي هذا سيثير استغرابك، أليس كذلك؟ لأنك تعلمين أنني لست شخصاً خجولاً، لكنني لم أحضر اللقاء لأن لقاءً يجمع أربعة أشخاص يستحيل أن يكون حميمياً، ربما لو كان دي كامب وحده الذي سينضم إلينا ما كان الأمر ليزعجني، ولكن أن يحضر فيدياس أيضاً فهذا يجعل اللقاء بعيداً عن الحميمية التي أرجوها ويسبب لي شعوراً بالحرج..

إنني أريدك، وما زلت أريدك، وثمة آلاف الكلمات التي أود أن أقولها لك، في ذلك اليوم، بَدَوْتِ لي أجمل من أي وقت مضى، كنتِ مثيرة حقّاً

وفاتنة. أتعتقدين أنني أرغب في المتعة الحسية فقط؟ لذا تتهمينني بأنني رجل بلا قلب وبلا إحساس؟

أردت أن أكتب لك بإسهاب، ولكنني لا أجد شيئاً لأقوله لك، أنا مضطرب ومتوتر، وذكرى الحزن الذي سببتهُ لك ما زالت حاضرة، مثل شبح يتربص بي ويثير ذعري، لكن هل الذنب ذنبي؟

أنا في انتظار رسالة منك، لكنك لن تكتبي لي لأن كبرياءك يمنعك، ولأنك تظنين أنني جرحتك، من دون أن تفكري للحظة واحدة في أنني بدوري مجروح!

سأعود في غضون الأيام القليلة القادمة، حتى إذا لم تجتمع اللجنة. أريد أن أراك، أن أراك مجدداً، ولو ليوم واحد، لساعة واحدة، حتى لو لم ترغبي في وجودي، حتى لو طردتني!

كُفِّي عن كل هذا، من فضلك! ألتمس عفوك! فأنت لا تعلمين مدى الأذى الذي تسببينه لي.

إذا كنتِ لا ترغبين في أن أقبّل شفتيكِ، فإنني سأقبّل يديكِ، لويز، أنا أقبّل يديكِ! لأنه منذ أقل من يومين فقط، منحتني يداك لمسات حنونة ودافئة.

وداعاً، أو إلى اللقاء إذا كنت تودين لقائي وإذا سمحتِ بذلك. أجل، إلى اللقاء، قريباً!

* * *

صباح الأحد (15 نوفمبر 1846)

إن رسالتك التي وصلتني هذا الصباح حركت مشاعري، امسحي الدمع عن عينيك الجميلتين، واطردي هواجسك المحمومة، تجتاحني الرغبة في أن أضمك، وأن أضع رأسي على صدرك، إنني أحبك، أجل، أحبك، أتسمعينني؟ من ذا الذي بوسعه مقاومة حب مخلص، عميق وعفوي مثل حبك، أعترف لك بأنني كنت أخشى أن تكفي عن مراسلتي! آه! يبدو أنني لم أعرفك حق المعرفة! إن حبك يجعل الرعشة تسري في ضلوعي من فرط السعادة التي يغمرني بها، أما زلت قلقة من أن أزدريك يوماً ما؟ لِمَ؟ بالعكس، إن حبي واحترامي لك يكبران أكثر فأكثر، لذا أود أن أمنحك كل ما ترغبين فيه، ولكن لماذا تطلبين مني أن أمنحك التضحية التي ليس بمستطاعي أن أقدمها لك؟ ولماذا تؤكدين أن استقراري بباريس سيكون الشيء الوحيد الذي سيدخل البهجة إلى قلبك؟ أتدرين، لقد ودعتك يوم الخميس الماضي وأنا أشعر بالموت يغشى روحي، ولكن ما بين البقاء والرحيل، اخترت الأقل ضرراً، وهكذا رحلتُ، وبصدق، ندمت لأنني ودعتك، وكان إحساسي بالندم مريراً، وكأنني قد أقدمت على فعل شنيع، مع أنه لم يكن بإمكاني البقاء بالقرب منك، لذا كان لا بدَّ من أن أودعك. إنك تقولين إنني لم أشأ منحك قبلة الوداع، في حين أنك أنت التي رفضت ذلك، أتذكرين أنني وددت الإمساك بيدك إلا أن قبضتك ظلت متشنجة،

ورغم تصرفك هذا لم أغضب منك ولو للحظة واحدة، إنك تؤلمينني للغاية إلى درجة أن اتهاماتك تمزق روحي، كم أنا ضعيف! كنت أعتقد أنني قوي، وها أنذا أرتجف وأنا أكتب إليك، وقلبي يخفق بجنون، آه! سيتجدد لقاؤنا بعد أسبوع، وسأراك يوم الجمعة أو السبت القادم على أبعد تقدير، وأنا أعدّ الساعات التي تفصلني عن لقائك منذ الآن، وأجلس بالقرب من مدفأتي منتظراً انقضاء اليوم، كوني غير قادر على التفكير في أي شيء سواك..

سيكون لدينا الكثير من الوقت لنقضيه معاً، سأتدبر أمري مسبقاً وأتحرر من التزاماتي، وسأجلب معي قصتي القصيرة «نوفمبر»، وسأقرؤها لك ذات مساء، حينما نختلي ببعضنا البعض في الفندق، وفي يوم آخر، ستقرئين لي مسرحيتك التي سأحضر عرضها الافتتاحي إذا أردت ذلك، سأفعل كل ما تطلبينه مني!

الجو بارد، والعشب مغطى بالكامل بطبقة كثيفة من الثلج، وأشجار الجُزُرِ المحيطة بي تبدو من بعيد وكأنها تتشح بلون الحداد، وأفكاري تفرّ من هذا الجُمود وتحلق صوبك، لتلتمس الدفء من ذكراك، لأجد نفسي أتخيل وجهك الجميل، وجدائلك الناعمة، وبشرتك الرقيقة.

أَلَمْ تعديني بأنك ستكونين عاقلة يا طفلتي المسكينة؟ لويز، أرجوك كفي عن البكاء، أشفقي علي ولو أنك لا تشفقين على نفسك. لطالما كنت مقتنعاً بأن الحب يستطيع الصمود في كل الظروف: الغياب، التعاسة، الخيانة، والنسيان..، لأن الحب يكمن في أعماقنا بمنأى عن حوادث الحياة والظروف الخارجية، لذا فهو شعور سامٍ وخالد، وتأكدي من أنه مهما حدث، سنبقى معاً أنا وأنت، ستكونين لِي وسأكون لك، وإذا ما

تخاصمنا، سنتصالح ونعود إلى بعضنا دوماً، كما تعود الأنهار إلى مجراها الطبيعي.

ليس بوسعنا الهروب من قَدَرِ قلوبنا، ومن حتمية وقوعنا في الحب، أنا مِلكك، وأنت مِلكي، وسواء أهدانا هذا الحب المعاناة أو السعادة، فاعلمي بأن ذاك مُقَدَّرٌ لنا، هذا كل ما في الأمر..

هل وَاسَاكِ دي كامب؟ لأنني قلق عليك بسبب حالة الحزن التي تركتك فيها يوم وداعنا، يا إلهي! لا زلت أتخيلك وأنت تقفين بمحاذاة سور المحطة متشنجة وباكية، وتكيلين لي الاتهامات! بدا هذا المشهد وكأنك كنت ضحية وأنا جَلَّادُكِ! كم وددت ساعتها أن أنحني على ركبتي أمامك وأحيل دموعك بسمات مبتهجة!

إلى اللقاء، إلى اللقاء يا حبيبتي، سأكتب لك قريباً لأخبرك بموعد قدومي إلى باريس.

أرسل لك ألف قبلة.

* * *

صباح الإثنين (16 نوفمبر 1846)

من الوارد أنك ستتوصلين بمسودات أعمالي مساء غد، إن الصديق الشاعر «لويس بويليه» تأثر برسالتك، سيأتي معي إلى باريس في المرة القادمة، وسأعرفك عليه، إنه شاب مرح! سأكتب لك في نهاية الأسبوع لأخبرك بموعد قدومي.

أجد صعوبة في العودة إلى الكتابة، إن الأسبوعين الأخيرين اللذين كَرَّسْتُهُمَا للراحة أثَّرا علي، حالياً، ليس في جعبتي أي موضوع لأكتبه، كما أنني ما عدت أرى أي هدف من الكتابة، وعلى أية حال فإن الكلمات تتسرب من بين يدي كلما حاولتُ القبض عليها.

قبل يومين ألقيتُ نظرة على مسودة روايتي «التربية العاطفية»، من المؤكد أنك ستجدين صعوبة في قراءتها لأنها ملأى بالتشطيبات، وكذا لأن أسلوبي لم يكن ناضجاً بعد، إذ حين كتبتها لم تكن لدي الكثير من الخبرة، لا شك في أنني متيم بحبك كي أجرؤ على الاعتراف لك بأشياء مماثلة، إنني أتجرد من غروري الأدبي وأنحني أمامك يا ملهمتي، في النهاية، لا أعتقد أنك ستجدين أسلوبي في هذه الرواية جافاً أو سيئاً.

إلى اللقاء عزيزتي لويز، قبلاتي.

حبيبك غوستاف.

* * *

الإثنين (16 نوفمبر 1846)، الساعة الثالثة بعد الزوال

أرسل لك قبلة حارة على جبينك وقبلتين أخريين على خديك، آه، أكرر أنني عرفت كم كنت مخطئاً حينما فكرت في أن أنذر لك نفسي، فأنت تستحقين رجلاً أفضل مني، لقد منحتني الذهب، لكنني في المقابل أهديتك الفضلات، أجل، فلنبق صديقين، ولنتبادل الرسائل من حين إلى آخر، أؤكد لك أنك يمكنك أن تثقي بي وتعتمدي علي دوماً، مثلما يستند النُّصب على القاعدة، رغم سقوط تمثالي من فوق القاعدة حيث سَمَا بي حبك، لأنه لم يعد مصنوعاً من الفضة بل استحال منحوتة من الرصاص، أليس كذلك؟ دعيني أنشد على مسامعك بيتاً من أبيات موسيه بتصرف طفيف:

أتيتِ متأخرة جداً في حياة رجل طاعن في السن.

كنت سأكذب عليك لو اعتقدتُ أنك إنسانة سيئة، ربما لم يطاوعني قلبي لأحكم عليك بطريقة دونية من شأنها أن تسقطك من عيني، أنا لم أخلق للسعادة ولا للحب، ولم أستنشق منهما إلا بضع نسائم، تماماً كما يستنشق الأوغاد روائح الأكل الشهية عبر فتحة التهوية التحت أرضية، ويشتهون كل ما يُطهى، ويقولون: «لو كنا هناك، لأكلنا مِلْءَ بطوننا!» ولكن إذا ما سُمِحَ لهم بالدخول إلى المطبخ، فإن جوعهم سيزول، لأن الفحم سيسبب لهم صداعاً..

لو كنتُ التزمتُ باستخدام نبرة لَبِقَة وودودة، وغمرتك ببعض المشاعر الدافئة والجمل الشعرية، كان من الوارد حينها أنك ما كنت لتتعرضين لهذه السقطة التي سببت لك الكثير من الألم، غير أن قلبي يتماهى مع صوتي، الذي صار مكتوماً من فرط الصراخ اللامجدي.

لماذا تصرين يا صديقتي العزيزة، على مقارنة نفسك بفتيات أخريات عرفتهن قبلك؟ لماذا تحبين المقارنات؟ ما هذه الحماقة! ولماذا تلومينني على أنني أردت أن أهديك سواراً بعد ليلتنا الأولى ولم أفكر بدلاً من ذلك في إرجاء إهدائه لك ليلة رأس السنة؟ هل تعتقدين حقّاً أنني فظّ؟ وأنني أجهل حتى أبسط مفاهيم الأخلاق وفن العيش؟ يا لعادتك السيئة وهوسك يا عزيزتي الصغيرة، وكأنك تمسكين إزميلاً وتحفرين روحك لتخلفي بها ندبات أعمق من كل الندوب التي تحملينها سلفاً.

سأبوح لك بسبب إهدائك ذاك السوار بعد أول ليلة قضيناها معاً، إنه سبب بسيط جداً: كان لدي المال الكافي في تلك الفترة، أما الآن فأنا مفلس، هذا كل شيء.

لطالما عشتُ في احتياج مروع يجعلني كئيباً وعصبياً، وكثيراً ما أشعر بالخزي، كما لو كنت أرتدي أسمالاً لا مرئية، كتلك الأسمال التي تحمر الوجوه خجلاً لدى رؤيتها. لدي احتياجات مبالغ فيها تشعرني بأنني فقير على الرغم من امتلاكي مَالاً يفوق ما أحتاجه لأعيش حياة كريمة، كما أنني أتوقع أن ينتهي بي المطاف في خريف العمر في المستشفى، أو أمضي أواخر عمري بطريقة أكثر مأساوية. سينتهي بي الأمر كذلك لا محالة يوماً ما، لأن الجمع بين الرغبة في الحصول على مال وفير والزهد في البحث عن مصادر إضافية لتحقيق الربح معادلة مستحيلة، إنها تتماهى مع طريق

مسدود يختنق فيه المرء رويداً رويداً، في النهاية، لا يهم، لأن لا أحد يفهمني حينما أتحدث عن هذا الأمر، لذا ما من حاجة للتحدث عنه.

تقولين إن كبريائي يبدو لك عظيماً، آه لو تعلمين الضربات الموجعة التي تلقيتُها والإهانة التي أشعر بها في داخلي، وقتها كنت ستشفقين علي بدلاً من أن تضمري لي الحقد! ولكنني لا أريد أن أحدثك عن كل هذا، ولا عن العديد من الأمور والأفكار السيئة الأخرى التي ترافقني في حياتي اليومية، كقطيع قذر من الحيوانات المتوحشة، يحتل فكري ويستبد به، ويسلب مني شيئاً فشيئاً حريتي الفكرية.

* * *

الثلاثاء (17 نوفمبر 1846)، العاشرة مساء

يا ملاكي الغالي، لا تبعثي رسائلك مجدداً إلى إقامتنا بكرواسيه، بل أرسليها إلى روان، لأننا سنعود إليها يوم الخميس المقبل، وهو اليوم الذي من المرجح أن تقرر فيه اللجنة موعد اجتماعها أخيراً، لأنه لا بدّ من أن يجهز تمثال والدي! لقد كان من المقرر أن يعقدوا اجتماعهم يوم السبت الماضي، لكن لم يحضر سوى أربعة أعضاء من أصل ثمانية (كنت أنوي أن أقصد باريس يوم السبت المنصرم دون أن أعلمك بقدومي، لأستمتع برؤية وقع المفاجأة عليك حينما أطرق بابك دون سابق إنذار، كان هذا مخططي السري!). إنني متعب للغاية من فرط الانتظار، ولم أعد واثقاً من أي شيء، ولكنني أؤكد لك أنك سترينني قريباً، أحتاج بشدة إلى لقائك من جديد، لأن قلبي يحترق بنار الاشتياق..

لدي ذكرى مشوشة وضبابية عن تلك السيدتين اللتين تحدثت عنهما في رسالتك التي توصلت بها هذا الصباح، تقولين إننا التقينا هاتين السيدتين في ورشة فيدياس ذات يوم، أعتقد أنك تبالغين وأنت تنقلين لي كلامهما عن عينيَّ، لأنني أعلم أن النساء لا يعترفن عادة بمشاعر الإعجاب، أغلب الظن أنهما فضوليتان، هدفهما هو جَسُّ نبضكِ ليتحققا من مشاعرك نحوي، على أية حال، لا أظن أنني أملك عينين جذابتين أو مُغويتين، بل أجد أن الطبيعة خصتني بعينين وحشيتين، تشبهان أعين الأطفال، الأغبياء والحيوانات، ربما لأنني عشت كثيراً وأنا محاط بهؤلاء، إلى درجة أنني صرت شبيهاً

بهم، بصدق، أنا مقتنع بأنني قَلَّمَا أثير إعجاب النساء، من الوارد أن يعجب بي بعض الناس، أو أن يكرهني البعض دونما سبب جلي، ولكن الأغلبية لا يلاحظون وجودي من الأساس، إنني أشترك في هذا مع الجميع..

ألم تلاحظي في لقاءاتنا الأولى أنني كنت خجولاً وأخرق للغاية؟ كما أنني لم أكن واثقاً بنفسي، لذا كان لزاماً علي أن أدرب نفسي كي أحس بالثقة وأظهر لك في أفضل حالاتي، أتدرين أنني إلى الآن لا زلت أستغرب كيف لامرأة مثلك أن تحبني، ولا أصدق أنك حبيبتي، إن حبك بالنسبة إلي شيء خارق، وبمثابة نقطة تحول في حياتي، أو فلنقل إنني ولدت من جديد بفضل حبك، يا لعذوبة ذكراك! فقط لو تعلمين كم مرة تحلق أفكاري صوبك كل يوم! لتحط على يدك، وتتأرجح على أطراف ضفائرك، وتستمد النور من لهيب عينيك!

قلتِ لي أمس إنني قصيدتك الأخيرة، إذا ما كنتُ حبك الأخير كما تقولين، فلا ريب في أنك أيضاً ستكونين آخر قصة حب في حياتي، إن ذكرى حبي الأول تلوح لي بعيدة جداً بعدما عرفتك! ربما يكون قدر قصص حبنا الأولى ألا تعيش طويلاً، لأننا كنا نحب بطريقة أقل عمقاً، وأقل حميمية. أرغب في أن أحبك أكثر، وأريدك أن تتأكدي من حبي الكبير الذي سأحرص دوماً على إثباته لك!

منذ بضعة أيام ما عدت أعمل كثيراً، لأن عودتنا إلى روان تشغلني، ومع ذلك فإنني أخطط لكتابة عمل جديد، وأفكر فيك طوال الوقت، قصتي «نوفمبر» بالقرب مني، سأجلبها لك في زيارتي القادمة، لقد نسيت أن أبعثها لك في الأسبوع الماضي.

ألف قبلة دافئة.

* * *

صباح الأحد (22 نوفمبر 1846)

تم تأجيل اجتماع اللجنة إلى يوم السبت المقبل، لذا سآتي غداً إلى باريس، أجل، غداً يا ملاكي! وسأمنحك قبلة ملؤها الشغف!

لا أعلم بعد في أية ساعة سأصل بالضبط، قد أكون في الفندق على الساعة الرابعة مساء، في كافة الأحوال سأعلمك بموعد وصولي عبر رسالة أخرى! وبعدها أقترح عليك أن تنتظريني في الشارع الرئيسي بالقرب من مقهى باريس بدءاً من الساعة الثالثة بعد الظهر.

ابتهجي، سنلتقي بعد أربع وعشرين ساعة!

في الانتظار، أبعث إليك ألف عناق دافئ.

* * *

الإثنين (23 نوفمبر 1846)

سأحدّد لك يوم وصولي إلى باريس في الرسالة المقبلة، فيما يخص التوقيت، لا يمكنني أن أتفق معك على اللقاء في ساعة معينة، إذ من الوارد أن يتأخر القطار أو أن أفَوِّتَ موعد الرحلة.

قرأت رسالتك هذا الصباح (توصلت برسالتين في آنٍ واحد، إحداهما تحمل تاريخ يوم الخميس والثانية كتبتِها يوم أمس، وأنا هنا سأتحدث عن رسالة أمس). صدقيني، لو أنك ألقيت كلماتها على الوحوش البرية لَرَقَّتْ قلوبها، وأنا بالطبع لست وحشاً، فأنا مجرد رجل متواضع جداً، متقلب المزاج ومتردد، مختلف، متعدد الوجوه، متناقض وعبثي، أنت لا تفهمينني وأنا كذلك لا أفهم نفسي، إنه موضوع ممل للغاية يطول شرحه، لذا من المحبذ أن نتحدث عنا وعن علاقتنا.

أنت تحبينني، وأنا أيضاً أحبك، أعشق قلبك المتقد النابض بالحياة، قلبك المرهف الذي تتناوب على تمزيقه ترانيم الحب الممزوجة بتنهدات رقيقة، وصرخات مؤلمة ومفجعة، لم أكن أتوقع أبداً أنك تحملين بين ضلوعك قلباً ذهبياً، إنك تدهشينني كل يوم، إلى درجة أنني صرت أشك في ذكائي، أعترف لك بأني أشعر بالإعجاب والذهول حين تتراءى لي الكنوز العاطفية الكامنة بداخلك، وكأنك تشرعين لي باب منجم ذهب لأدخل إليه لوحدي وأتأمل روائعه باندهاش.

أنا أحبك أيضاً، اقرئي هذه الكلمة التي تتوقين إليها دوماً رغم أنني لا أتوقف عن قولها وتكرارها في كل سطر أخطه إليك. إن كُلّاً منا يفكر، ويستمتع، ويحب، ويحيا حسب طبيعته، وبطريقته الخاصة، ولكل منا قفصه الخاص، يختلف حجم هذا القفص من شخص إلى آخر، إلا أن هذا القفص هو الذي تتحرك فيه روحنا وتطوف وفق توازنات فريدة. إضافة إلى هذا، إن ما يصدمنا ويثير استياءنا هو ما يسحر شخصاً آخر ويبهجه. ربما لم أخلق للحب، لكنني رغم ذلك أشعر بأنني أحب، فأنا أدرك ذلك إدراكاً عميقاً وحميمياً، إن ذكراك تسكن في أعماقي وتشعرني بخمول لذيذ، ورسائلك تجعل الرعشة تسري في جسدي بأكمله فأفتحها وقلبي يخفق بجنون، وصورتك تثيرني وتجذب روحي إلى عالم الحب السامي. ألا تشعرين بما أشعر به؟ لكن قد تكونين محقة، قد أكون كما تقولين بارداً، عجوزاً، يائساً، وتتقاذفني النزوات والأفكار السخيفة والعبثية، وربما أكون أنانياً! لكن من منا لا يحمل بعض الأنانية في داخله؟ بدءاً من المجرم النذل الذي بوسعه التضحية بعائلته كلها مقابل مشروب كحولي، مروراً بالرجل الشجاع الذي يخاطر بحياته من أجل إنقاذ أرواح الغرباء العالقين في الجليد، ألا يسعيان كلاهما، وفقاً لرغباتهما وطبيعتهما الخاصة، إلى إشباع حاجة شخصية، سواء كان ذلك على حساب الآخرين أو لصالحهما، حسب الهدف الذي يصبوان إليه عبر أفعالهما، إن الدافع الأول ينبع دوماً من الأنا كما يقول الفيلسوف، ويسعى إلى أن يعود عليها أي فعل بالنفع. لا يهم! حتى لو كنت في الحقيقة الرجل البارد والأناني الذي تصفينه لا الرجل الذي أبدو عليه، أود فقط أن تتأكدي أنني لست برجل جاحد.

فلنعش قصة حبنا إلى النهاية، إذا كنت توافقين على الاستسلام لرياح

عشقي، هل تذكرين يوم الجمعة الذي لم أقصد فيه منزل فيدياس لألقاك؟ كم لمتني يومها، عزيزتي! ثقي بي، لقد تخلفت عن الحضور لأن حدسي نبأني بأنني سأسبب لك الكثير من المتاعب. لا تبكي رجاءً، إن الدموع التي تذرفينها تعكر صفو أفكاري، مثل تعكر السحب العاصفية السماء الصيفية.

أرسلتِ لي نسختك من كتاب «رحلة إلى سوريا ومصر» للفيلسوف والأديب «فولني»، أشكرك جزيل الشكر، أنت إنسانة مميزة ومُراعية، وتتحينين الفرص لفعل أي شيء بوسعه أن يدخل السعادة على قلبي. إن أخي يملك نسخة من هذا الكتاب، لكن ما ينقصه هو وشاحك الجميل الذي قمتِ بلفه بشكل جيد بين المجلدين. سألفه على عنقي في باريس، وسأقابلك به عما قريب. هل تودين أن أبوح لك بِسِرٍّ يثقل قلبي؟ أنت تستحقين رجلاً أفضل مني، بل كان يجب أن تلتقي وتقعي في حب رجل آخر، أقول هذا كوني أشعر أن دوري بات غير مهم في حياتك، كما أدرك أني أسبب لك الألم والمعاناة، على الرغم من أنني أرغب في أن أغمرك بالفرح والسعادة اللامنتهيين.

أُنَقِّبُ في رأسي البائس ولا أعثر على أية فكرة، لا أعثر على أية جملة لأكتبها، كما لو أن قلبي استحال عاجزاً عن الشعور بشيء عدا المعاناة، هذه المعاناة التي تطفئ رغبته في الكتابة رويداً رويداً.

قصة إيما التي حكيتها لي مثيرة للاهتمام إلى حدٍّ ما. أنا أعرف معرفة سطحية شخصاً يُدعى «دولاك» كان يدرس الحقوق أو الطب، لا أتذكر جيداً، قد يكون الشخص الذي أتيتِ على ذكره شخصاً آخر.

بإمكانك التواصل مع الصديق الشاعر «ألفريد دي فيني» إذا كان هذا يروقك.

إلى اللقاء حبيبتي، أطبع قبلة طويلة على قلبك المرهف.

المخلص لك.

(صديقي دي كامب يحدثني عنك كثيراً، يبدو أنه مخلص **لك**، ولكنه يجدك حزينة للغاية حسب أقواله، كتب لي ليخبرني بأنه يبذل قصارى جهده ليرفع معنوياتك، ولكن النتائج التي يحصدها مخيبة للآمال. فاحكي لي في رسالتك عما تتحدثان وماذا يقول لك بالضبط؟).

* * *

الأربعاء (2 ديسمبر 1846)، الثانية بعد الظهر

أشعر بالحزن، بالضجر والانزعاج، كما أن فكري نَضَبَ لذا ليس بوسعي العثور على فكرة واحدة داخل رأسي المتعب، ولولا وجود صديقي المخلص ماكس كنت سأغرق في بحر اليأس. ها أنا قد عدت إلى حياتي البسيطة والرتيبة التي تحمل في ثناياها بعض اللحظات الروتينية اللطيفة، وربما تزخر ببعض العظمة في استمراريتها. وحينما أكسر رتابتي المعتادة أحن إليها فوراً، ثم ينتابني شعور مرير لا قرار له. اليوم، على سبيل المثال، أشعر بملل يشبه تماماً ملل الطلاب بعد عودتهم من العطلة الصيفية الطويلة إلى مقاعد الدراسة. إننا نضيع حاضرنا دائماً ونحن نحلم باللحظات الممتعة التي عشناها في الماضي، ونشعر بالأسف لعدم استغلالنا لها بشكل أفضل. قبل أربع وعشرين ساعة فقط، كنا أنا وأنت على متن العربة، وبعدها تجولنا سيراً على الأقدام في الغابة. هل تشعرين أحياناً بالندم على اللحظات التي ضاعت منا دون أن نستمتع بها بما يكفي؟ تلك اللحظات التي يسترجعها القلب بعد انصرامها، لتتألق في ذاكرتنا مثل تطريز مزركش بخيوط ذهبية فوق ثوب أيامنا الداكنة..

تعود بي ذاكرتي مراراً وتكراراً إلى تلك اللحظات في العربة، حيث كانت تتسلل إلينا أشعة الشمس من خلال الستائر الصفراء، لتصطبغ شفتاك وجفناك بلون وردي نابض بالحياة.

لا تقولي لي أبداً إنني لا أحبك، لأنك بقولك هذا تجعلينني أشعر بحزن وأسى لم أشعر بهما من قبل، فأنا أشعر بالألم أكثر من المتعة، وقلبي يشبه مرآة منكسرة تعكس الحزن أكثر مما تعكس الفرح، ربما لهذا السبب لم أخلق لأشعر بدفء السعادة ولا لأعيش في كنف الحب.

إنني أدرك أنني أبدو لك أحياناً طائشاً، لئيماً، مجنوناً، أنانياً أو قاسياً، ولكن هذا ليس ذنبي، إذا كنتِ قد أصغيت إلي جيداً وأنا أقرأ لك قصتي «نوفمبر»، من الوارد أنك اكتشفت من خلالها آلاف الأسرار التي لا يمكنني البوح بها، والتي قد تفسر لك من أكون، لكن ذاك الزمن قد ولى، لذا أعتبر هذه القصة بمثابة نقطة النهاية التي ختمت بها مرحلة صباي الذي لم يتبق منه إلا النزر القليل، لكنه صامد بثبات وعزم.

لقد أتيتُ إلى هذا العالم والملل ملتصق بجلدي، مثل جذام يقضم جسدي ببطء. أشعر بالملل من الحياة، من ذاتي، من الآخرين، من كل شيء. لقد اعتدت على العمل بفضل عزيمتي القوية، ولكن حينما انقطعت عن الكتابة، طفت نوبات الملل من جديد على سطح روحي العليلة.

لقد حاولتُ جاهداً تجنب الوقوع في الحب، إلا أنني تعثرت بك، والآن ليس بوسعك تخيل ما الذي يعصف بِكَيَانِي حين أمضي بعض الأيام معك، ثم أعود إلى هنا، بعدما أودعك وأنا لا أدري متى ستتاح لي الفرصة للقائك من جديد يا بلسم روحي.

إلى اللقاء، أرسل لك قبلة، أحس بالبلاهة، كما أنني مشوش الذهن ولا أعرف ما الذي أكتبه لك، ولا حتى إذا ما كنت ستستطيعين قراءته بسبب خطي السيئ.

إلى اللقاء، فلترافقك ألف نسمة من الحنان، مع أن قلبي يعتصره الحزن.

* * *

السبت (5 ديسمبر 1846)

أشكركِ على رسالتك الطيبة، الرقيقة، الموشاة بحُزن طفيف، والملأى بالبسمات التي تلوح تحت آثار دموعك، كنت قد بدأت أقلق بعد أن طال انتظاري لرسالة منك، تقولين إنني لم ألتفت نحوك بعدما وَدَّعْتُكِ، بلى، لقد التفتُّ مرتين، ولكنني لم أجدكِ..

منذ ثلاثة أيام وأنا أشعر بحزن شديد، هل هذا راجع إلى أنني ودعتكِ؟ أعتقد ذلك، بل أنا متأكد منه. وربما يكون للقلق الذي أشعر به حيال انتقالنا إلى منزل جديد أيضاً نصيب في إحساسي العارم بالحزن، إن منزلاً لم نعش فيه من قبل يتماهى مع رداء نبتاعه من بائع الملابس المستعملة، ولهذا نحس بالضيق ويغمر الصقيع أرواحنا، لأن قلوبنا وأجسادنا لا تألف هذا الرداء المستعمل مذ أول يوم نرتديه فيه. لذا فأنا أفهم جيداً عادة الشرقيين في عدم اقتناء منزل سبق وأن عاش فيه أناس آخرون، إنهم يبنون منازلهم بأيديهم ويوصون بهدمها بعد وفاتهم، ترى ما نفع الاحتماء بسقف شَهِدَ أحلام أشخاص آخرين، قصص حبهم، واحتضاراتهم؟ في نظري، مثلما يحظى كل ميت بتابوت لوحده، لا بدّ من أن يكون لكل روح حية منزلها الخاص! أظن أننا نترك آثارنا على كل شيء نلمسه أو نمر فوقه: الجدران، الأشجار، الأرصفة.. إلخ..

لم أشرع في العمل بعد، إلا أنني أخطط للعودة إلى دراسة اللغة

اليونانية بدءاً من يوم الإثنين، غداً سأذهب أنا ودي كامب إلى «نوفيل» لزيارة ذاك الصديق المقرب الذي حدثتك عنه، والذي عاد مؤخراً من إيطاليا، ها هو ذا صديق آخر سيرحل عني، لقد تزوج، ورغم أنه يؤكد لي أن صداقتنا ستستمر، لكنني أعلم علم اليقين أنه سينضاف إلى لائحة أصدقائي الراحلين، الغائبين إثر زواجهم! من الوارد أنني سأكتب ذات يوم اعترافاتي، أو مذكراتي، ستكون بلا شك غريبة، ومسلية إلى حدٍّ ما! إلا أنني حالياً لا أملك القدرة على كتابتها، وربما لن أستطيع كتابتها أبداً!

إلى اللقاء، أضع قبلة على عينيك اللتين تبدوان خلابتين بشكل لا يوصف وأنت تذرفين الدمع. بما أنه لا زالت هناك مساحة صغيرة في ورقتي هذه، أرسل لك قُبلاً أخرى. إن قصة السيد «دي لامار» أثارت اهتمامي بعض الشيء، إنها ملهمة وأحداثها قابلة لأن تتحول إلى رواية، لكن الأصعب هو إعادة إنتاج هذه الأحداث بواقعية وصدق.

* * *

الإثنين (7 ديسمبر 1846)، الحادية عشرة مساء

ما خطبكِ، صديقتي العزيزة؟ ما عدت أتوصل برسائلكِ ولا أعرف أخبارك! إنه أمر قاس! ترى هل قلتُ شيئاً أساء إليك في رسالتي الأخيرة؟ أرجو أن تصفحي عني، إنني أعاني كثيراً، كما أن مزاجي قد صار حاداً وعكراً في الآونة الأخيرة، ومهما حاولت أن أخفي ألمي في داخلي، فإنه يتسرب إلى الخارج أحياناً ويمزق قلوب أحبائي حينما أحضنهم.

أحبك بعمق، ما زلت أحبك كثيراً وسأحبك إلى الأبد، وذكراك العذبة تمنحني لحظات ساحرة، وتهدهد أفكاري تماماً كما يتأرجح جسد متعب في أرجوحة شبكية تتمايل مع النسمات الدافئة، آمل أن أتلقى غداً بضع صفحات منك، لطالما كنت أتوجس من أن يحدث شيء مؤسف، أو أن يحشر والد طفلتك أنفه في شؤوننا، وما إلى ذلك... أو أن تلم بك أزمة صحية، من الوارد أن تندهشي مما أقوله، أليس كذلك؟ لأنني أبدو لك بارداً وغير مبال، ولكنني أحبك أكثر مما تتصورين. إنه أمر مثير للشفقة، ولكنني كنت هكذا دوماً، أتوق باستمرار إلى الأشياء التي لا أمتلكها، وعندما أمتلكها لا أعرف كيف أستمتع بها، مثلما أعاني بسبب خوفي من المصائب المستقبلية، لذا حينما تتحقق مخاوفي، أكون مستسلماً لها مسبقاً، خاضعاً وراضياً.

لم أشعر بأهمية العائلة إلا بعدما فقدتها، ففي السابق، كانت الالتزامات

العائلية تضجرني. لذا من الممكن أن أصاب بالجنون إذا ما فقدتكِ، إن هذه المخاوف تنبع من التناقض الذي يطبع القلب البشري، والتناقض جزء من طبيعة الإنسان، وأنا مجرد إنسان بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ صادقة ومبتذلة، رغم أن حبك الكبير لي جعلك تظنين أنني رجل راقٍ ومميز، أعترف لك أنني كنت بدوري أدعي السمو والتميز في لحظات نادرة تزداد نُدرة بمرور الأيام.

أنا لا أسعى إلى قطع كل رابط أو الانفصال عن كل مشاعر الحب، إلا أن هذه الروابط هي التي تنفصم عني بمحض إرادتها، تماماً كما ترتخي وتنفك العُقد تلقائياً دون أن تمسها أي يد، لقد عشت الكثير من تجارب الحب الحماسية، وأقمت علاقات صداقة عميقة، وشعرت بالتعاطف القوي، لكنني رأيتها تذوب وتتلاشى مثلما يذوب الثلج، والآن أنا أتشبث بالروابط القليلة التي تبقت لي، سبق وبكيتُ على الموتى والأحياء على حدٍّ سواء، وضحكت ضحكات ممزوجة بالرثاء الذاتي بسبب عبثية أسمى مشاعري وأنقى معتقداتي، ولكنني مهما حدث لا أطرد من حياتي أولئك الذين يرغبون في البقاء معي في عزلتي المملة.

كثيراً ما نتحدث عنك أنا ومكسيم، ولكنني أشعر بالارتعاب كوني أخشى أن تسمعنا أمي، لأنه في إحدى الأماسي، قدم صهري الذي تجاور غرفته غرفتي، ليخبرنا بما سمعنا نقوله في محادثتنا، لحسن الحظ كانت محادثتنا تلك عن موضوع غير ذي أهمية، لكنني اعتبرت ما حدث تحذيراً لي، أنا ومكسيم نمضي وقتنا في محادثات أشعر بالخجل منها أحياناً، لأنها محادثات مليئة بالجنون، وبالأحلام العظيمة، إذ إننا نشيد قصوراً فاخرة في خيالنا، ونؤثث فنادق راقية على الطراز القوطي الفينيسي، ونشد الرحال

إلى الشرق في موكب سلطاني، ثم نسقط من عالم الأحلام ونعود إلى واقع حياتنا اليومية البسيطة والمكررة، لنجد أنفسنا في النهاية مسربلين بالحزن مثل الجثث في أكفانها، لكن محادثاتنا وتخيلاتنا هذه قد تكون في نظر الأشخاص الآخرين مملة حدّ الموت.

في الصباح، يقوم مكسيم بزيارة مستشفى «أوتيل ديو» ليحضر العمليات الجراحية ويتفرج على بتر الأعضاء، إنه أمر يسعده ويسليه، ربما لأن هذا يذكره بوالده الجراح الراحل. في هذه الأثناء، أحاول أن أدرس اللغة اليونانية فضلاً عن ممارستي لبعض تمارين المسايفة. وبعد ذلك، نقضي وقتاً طويلاً في التدخين، هكذا مرت أيامنا أنا ودي كامب خلال الأسبوع المنصرم، أما في المساء، فإنني أنشغل بقراءة كتاب «العبودية العسكرية والعظمة» لصديقي ألفريد دو فيني الذي يحلو لي أن ألقبه: «ستيلو»، إن الأسلوب الذي كتب به جيد حقّاً، ولكنه بارد قليلاً. لدي نسخة كاملة من كتاب القديس «أوغسطين»، وعندما يغادر صديقي، أنغمس بعمق في القراءات الدينية، لا بهدف إشعال جذوة الإيمان بداخلي، بل لأحاول فهم الأشخاص المؤمنين.

إلى اللقاء، حبيبتي الغالية واللطيفة، أقبّل عنقك الرقيق.

حبيبك غوستاف.

***

الجمعة (11 ديسمبر 1846)، الرابعة بعد الزوال، (روان)

ألا تشاطرينني الرأي في أن قصة حياة السيد دي لامار تصلح لأن تكون مادة روائية رائعة؟ أنت باستطاعتك معرفة حقيقة تلك القضية وتفاصيلها بحكم قربك من مسرح أحداثها، لذا أعتقد أنه يتوجب عليك التورط في هذه القصة، وأنت تملكين القدرات الفكرية اللازمة لهذه المهمة، إذ إن عقلك ثاقب ورؤيتك صائبة (خصوصاً حينما لا تمارس عليك مشاعرك التضليل)، إن هذه القصة في عمقها شائكة ومحيرة، لهذا عليك أن تدرسي جيداً شخصياتها الرئيسية وتتمعني في نوازعها ودوافعها، وأن تعثري على القطع المفقودة في هذه القصة وتقومي بتجميعها داخل عقلك، لأن الحقيقة كثيراً ما تكون مجتزأة، بل مبتورة، وبعدها، سيكون بمقدورك أن تَخُطِّي هذه القصة التي تستحق أن يسلط عليها الضوء داخل كتاب ذي هندسة محكمة، يتناول تفاصيل هذه القضية من زوايا وأوجه مختلفة، بأسلوب سلس يحافظ على وحدة النص. إن التفاصيل التي منحتها لي حول حالة السيد دي لامار مثيرة للاهتمام، وبدوري سأجمع بعض المعلومات عن هذا الموضوع وسأخبرك بالتفسير العلمي له، في كافة الأحوال لا ينبغي أن نفكر في إلقاء اللوم على زوجته التي قلتِ إنك تجدين عواطفها فاترة، فادعاء أن شخصاً ما عديم العواطف فقط لأن لهيب الشغف قد خَفَتَ بداخله بمثابة ادعائنا أن الشمس قد انطفأت في حين أنها تتوارى خلف

الغمام وحسب، إن الحقيقة تكمن تحت التدرجات اللونية الباهتة والقاتمة على حدٍّ سواء. كان لدي في فترة صباي صديق حقيقي مخلص لي، وكان على استعداد لبذل حياته وماله في سبيلي، ومع ذلك فإنه لم يكن لديه أدنى استعداد لتغيير أبسط عاداته الحياتية من أجلي، كأن يغادر فراشه قبل نصف ساعة من موعد استيقاظه المعتاد ليلتقي بي، أو أن يتخلى عن كسله وبطء حركته ليرضيني. عندما نراقب الحياة بانتباه، نكتشف أن أشجار الأرز أقل ارتفاعاً مما نظن، وأن نبات الخيزران أكبر مما نتصور، ومع ذلك لا تروقني عادة بعض الناس الذين يحطون من قيمة الأشخاص الطموحين وينتقصون من سموّهم الروحي الخارج عن المألوف.

ارتباطاً بهذا الموضوع، أعترف بأن كتاب «العبودية العسكرية والعظمة» لألفريد دو فيني قد صدمني قليلاً في البداية، لأنني لاحظت بين سطوره انتقاصاً منهجياً من الطاعة العمياء (تقديس الإمبراطور على سبيل المثال)، وكذا انتقاصاً من تحيز الإنسان لمثيله، مقابل تمجيد المفهوم المجرد للواجب، هذا المفهوم الذي لم أستوعبه أبداً لأنني لا أظن أنه مفهوم متأصل في طبيعة الإنسان، في نظري، أفضل ما في النظام الإمبراطوري هو تقديس الشعب للإمبراطور وتلك المحبة الاستثنائية، العبثية والعذبة في آنٍ واحد، التي يُكِنُّهَا له أتباعه، هذه المحبة الفطرية التي تكمن داخل الإنسان، لكل ما سبق ما عدنا نتحدث كثيراً عما يمثله الوطن بالنسبة إلينا، مع أنني أعلم علم اليقين ما الذي كانت تمثله أثينا بالنسبة لليونانيين، وروما للرومانيين، والغابة بالنسبة للقبائل المتوحشة، والخِيام بالنسبة للعرب. ولكن هل نحس نحن الفرنسيين بهذا الانتماء؟ ألا تتجه كل أحلامنا صوب بلدان أخرى؟ فعندما كنا أطفالاً، حلمنا بأن نعيش في البلدان الاستوائية،

وكان فكرنا يسمو بقراءة كتابات «بيرون» و«فيرجيل».. إلخ، وفي الأيام الممطرة، نتوق للعيش في الشرق المشمس على الدوام، أو نرغب في الذهاب إلى الهند لنحصد ثروة، أو إلى أمريكا لنتاجر في قصب السكر. ولهذا لطالما كان الوطن بالنسبة إلي هو الكون، الأرض، النجوم، الهواء.. إن هذه الفكرة بحدّ ذاتها تجعل الإحساس بالانتماء يتسرب إلى دواخلنا إلى ما لا نهاية، لم أهتم أبداً بنزاعات الشعوب، ولا باقتتال الإنسان مع أخيه الإنسان، وصدقاً أنا لا أشعر بالاستمتاع لرؤية كل هذا الجنون إلا حينما أراه مجسداً في لوحات كبيرة ذات خلفيات حمراء قانية.

أمس، أعدتُ قراءة أبياتك عن لقائنا في «مانت»، وشعرت بتأثر شديد وسرت القشعريرة في سائر جسدي رغم أنني كنت جالساً بالقرب من مدفأتي، ستكون هذه الأبيات ذخيرتي التي ستؤنسني في زمن شيخوختي، إنني أتخيلني مسبقاً جالساً في أريكتي، وأنا عجوز منحني الظهر، والشيب يغزو شعري، والسعال يكاد يفتك بي، ومع ذلك أنهض بتؤدة من مكاني، لأسحب من درج مكتبي المفكرة الجلدية الصغيرة التي تحتوي على أبياتك الساحرة هذه!

كثيراً ما أسترجع الأمسية التي قرأتُ فيها على مسامعك قصتي القصيرة «نوفمبر»، وأتذكر الدموع التي انسابت على خديك وأنت تتدخلين لا إرادياً لتقولي ملاحظاتك حول بعض التلميحات أو الإشارات في هذا النص، ولكنني ما زلت مقتنعاً بأن تقييمك لهذه القصة مبالغ فيه، بل إنني صدمت وخجلت حينما قارنتِ قصتي المتواضعة برواية «رينيه» للأديب «شاتوبريان»، هل تسمحين لي بأن أقول إن مقارنتك هذه (التي لا ريب في أن حبك الكبير هو الذي دفعك للقيام بها) بدت لي إساءة وانتهاكاً لعظمة رواية رينيه؟

في الخارج، الثلج يتساقط، والبرد قارس، سنتناول العشاء في المنزل الريفي الذي يملكه زوج أختي، رغم أنني كما سبق وأخبرتك لا أحب هذه الالتزامات العائلية التي تزعجني، لحسن الحظ نحن لن نمضي الليلة هناك بل سنعود إلى منزلنا عند الساعة العاشرة مساء.

إلى اللقاء يا حبيبتي الغالية، أقبّل بشرتك الرقيقة ألف قبلة ملؤها الحنان.

***

الأحد (13 ديسمبر 1846)

آه، يا حبيبتي المسكينة، كنت مريضة وتألمتِ بشدة! توقفي عن العمل بإفراط لأنه يستنزف جهدك وطاقتك، وجراء الإرهاق الذي يترتب عن ذلك فإنك إذا ما عدت إلى معانقة أوراقك فسيتطلب ذلك منك وقتاً أطول بكثير مما يلزمك لإنهاء مهامك، ثم إن اتباع نظام غذائي متوازن ومنتظم هو الذي يمد الجسم بالطاقة والقوة، لذا تجنبي الوجبات الدسمة والإفراط في احتساء الخمر، واشتغلي بصبر واجتهاد بشكل يومي لكن حدّدي ساعات معينة لاشتغالك، وحاولي أن تتبعي نمط حياة هادئ وتأملي أكثر، وإذ ذاك ستشعرين فوراً بتحسن كبير، وستتمتعين بالقوة اللازمة، أنا أيضاً عانيت بسبب اعتيادي قضاء ليال بيضاء، ولكنني لم أجنِ من هذه العادة السيئة شيئاً عدا التعب والإجهاد. يتوجب علينا أن نأخذ حذرنا مما قد يهيأ لنا أنه إلهام لكنه لا يكون في كثير من الأحيان سوى وَهْمٍ ونشوة زائفة ننساق وراءها عوض أن ننتظر الزيارات التلقائية للإلهام، لأنه علينا أن نسلم بحقيقة أننا لا نكتب دائماً تحت تأثير الإلهام، إن الحصان المجنح بيغاسوس يركض أكثر مما يفرد جناحيه في السماء، هكذا فإن الموهبة الحقيقية تكمن في معرفتنا للوتيرة المناسبة التي سنشتغل بها، ومتى علينا أن نخفف سرعة ركضنا في متاهات الإبداع، يلزمنا أن نقرأ ونتأمل، ونفكر دوماً في الأسلوب، وألا نكتب كثيراً، إذ علينا أن نلجأ إلى الكتابة فقط لنهدئ الاضطراب الذي تسببه الأفكار خلال سعيها لاتخاذ شكل تعبيري

يسمح لها بالخروج إلى الوجود، ولهذا لا تكف هذه الأفكار عن التردد في عقولنا إلى أن نعثر لها على شكل ملائم، محدّد، ومتسق تماماً. لاحظي أننا ننجح في إبداع أعمال رائعة بفضل الصبر والمثابرة لمدة طويلة، أما رأي الكاتب «بوفون» حول كتابة أعمال كثيرة بلا توقف وبهَوس محموم فهو يعتبر مجرد تجديف سرعان ما تم دحضه، والأعمال الحديثة شاهدة على مُجانبة رأيه للصواب. تحكمي في انفعالاتك التي لطالما عانيتِ بسببها، إن الحمى تُذهب العقل، والغضب ليس دليلاً على القوة..

أُجْرِيَتْ لي أمس عملية صغيرة بسبب وجود خَرَاجٍ في خدي، وجهي ملفوف بالضمادات ويبدو غريباً وسخيفاً إلى حدٍّ ما، لكن لا يهم، لأن حياتنا عبارة عن سلسلة من عمليات التحلل والتعفن المتعاقبة والمتناوبة، فاليوم نفقد سناً، وغداً خصلة شعر، وبعده ينفتح جرح، ويتشكل الخراج، وإذا أضفنا إلى كل تلك التعقيدات الصحية تقرحات القدم، والروائح الطبيعية الكريهة، والإفرازات بمختلف أنواعها، فإننا سنرسم صورة دقيقة ومثيرة للغاية عن الإنسان. أليس النظر إلى الأحذية القديمة كافياً ليوقظ فينا شعوراً عميقاً بالحزن وكآبة مريرة! فعندما نفكر في جميع الخطوات التي قمنا بها ونحن ننتعلها للذهاب إلى وجهات لا نعرفها بالضبط، والأعشاب التي وطأناها بها، والأوحال التي التصقت فيها، يخيل إلينا وكأن جلدها المتهالك يقول لنا: «اشترِ أيها الأبله ما شئت من أحذية جديدة، مصقولة، ولامعة، فإنها ستصير مثلي يوماً ما، وأنت كذلك ستتآكل رويداً رويداً بفعل المسير الطويل والشاق في طرقات الألم، الذي سيخلف فيك آثاراً لا تُمحى».

إلى اللقاء، اعتنِي بنفسك جيداً، واحترسي من البرد.

ألف قبلة.

* * *

الأربعاء (16 ديسمبر 1846)

بما أنك قلتِ إنك ما عدت تجدين أي شيء لتكتبيه لي، فإنه يتحتم علي أن أكون صريحاً معك وأعترف لك أنني بدوري لم أعد أعثر على أية كلمات في جعبتي لأوجهها إليك، بحكم أنني استنفدت كل الطرق الممكنة لعلك تفهمين كلماتي التي تصمين عنها أذنيك منذ خمسة أشهر، رغم أنني خُططتها لك بكل ما أملكه من رقة وعطف، وبكل التنويعات الأسلوبية التي أعرفها. منذ البداية أصريتِ على التدخل في حياتي ورغبتِ في أن أغيّر طريقة عيشي حسب مشيئتك، ولقد عانيتُ وأنا أرى مجهوداتكِ غير المجدية في سبيل زعزعة استقرار حياتي، لأنني أتماهى مع «صخرة تدمي يديْ من يلمسها» كما قلتِ.

إنك تتهمينني دون توقف بأنني أناني وقاسٍ وأنني لم أحبك أبداً، كم أنت مخطئة، كم أنت مخطئة يا صديقتي المسكينة! فقد تقربت منك لأنني أحببتك، وما زلتُ أحبك بالشغف نفسه، أحبك بطريقتي الخاصة، وفق طبيعتي. قلتُ لك منذ بداية علاقتنا إنه كان عليك أن تختاري رجلاً غيري، شاباً صغيراً وساذجاً، يحمل بين ضلوعه قلباً لم تنضجه نيران التجارب بعد.. أما أنا، فإن التجارب الحياتية الوحشية قد أنهكت قلبي والتهمت روحي، إذ ودعتُ الأموات، وفقدتُ الكثير من الأحياء، وتيقنتُ من أن المعاناة والألم غير مُجديين، أنا الذي كنت أعتقد بحماقة أنه لا بدّ من

أن تكون هذه المشاعر المؤلمة جزءاً من حياتي، لكنني اكتشفت أنه ما من شيء ضروري أو مُجْدٍ في هذه الحياة، كل ما في الأمر أنه ثمة أشياء تتفاوت من حيث الراحة أو المتعة التي تضفيها على حياتنا، ومن هذا المنطلق فإن أفراحنا وأحزاننا ليست سوى أوهام بصرية، مؤثرات ضوئية، ورسم منظوري مخاتل.

أخبريني رجاءً، ألا تشعرين بأن هناك عهداً يجمعنا؟ بالنسبة إلي، حتى لو نسيتِ وجودي، وتوقفت عن مراسلتي نهائياً، فإنني لن أنساك أبداً، ولو مرت عشر سنوات، يكفي أن تناديني لِأَمْثُلَ أمامك، وربما آنذاك ستشكرينني لأني تسببت في بكائك أحياناً كي أجنبك ذرف الدموع طيلة حياتك.

اكتبي لي، لا تجبري نفسك على ذلك، بل اكتبي فقط إذا اشتقت إلي، واحكي لي عن أحزانك، متاعبك، كتاباتك وانشغالاتك، فربما يكون بمستطاعي أن أواسيك أو أسَلِّيكِ على الأقل.. لو كنتُ (كما تقولين) حبك الأخير، فاسمحي لي بأن أصير صديقك الأثير! وإذا ما رغبت يوماً في تجديد اللقاء بعشيقك السابق هذا، فإنني سألبي رغبتك!

إلى اللقاء، أرسل إليك لمساتي الدافئة.

* * *

الخميس (17 ديسمبر 1846)، الثانية عشرة ظهراً

مرت أربعة أيام دون أن أتوصل منك بسطر واحد! لو كنت أملك نصف الكبرياء الهائل الذي تتهمينني به، كنت سأعاملك بالمثل، وأبادل صمتك بالصمت، وبالتأكيد، لن يكون تصرفي بالمثل تصرفاً فظّاً، بما أنك ترددين منذ أسبوعين وتؤكدين لي أنك تودين أن تولي اهتمامك لأمور أخرى غيري، كأن تشتغلي، وتثملي، عساك في النهاية تُشفين مني! إن قراركِ هذا قرار حكيم للغاية، وأنا ما كنت لأدخر جهداً كي أساهم في إهدائك الهدوء والسلام اللذين ترغبين فيهما، بما أنك تقولين إن حبي لك كريه (كتبتِ لي قائلة إنني أثير اشمئزازك)، وإن علاقتنا هشة، كعكاز لا يمكنك التوكؤ عليه، مخافة أن ينكسر وتتطاير شظاياه لتجرحكِ وتمزق يديك، لذا يتحتم علي أن أنزع حبي البائس من روحك السقيمة، أخبريني بما يتوجب علي فعله لأنجح في هذا المسعى؟ هل تودين أن أثير اشمئزازك أكثر؟ أن أتصرف معك كرجل خسيس، تافه، ووضيع وأصدك بطريقة يستحيل معها أن نعود إلى بعضنا البعض ذات يوم؟ إن القيام بهذه التصرفات سهل، أم ترغبين في أن أصرح لك بأنني توقفت عن حبك وأنني سئمتُ منك مثلما سئمتِ مني؟ أرشديني وأنا سأفعل ما تطلبينه، مهما كلف الأمر، لأنك قررتِ الابتعاد عني، لذا لن أعترض على قرارك وسأفعل ما ترغبين فيه الآن!

أجل، في الحقيقة سيكون هذا أفضل لنا، يا رفيقتي العزيزة، ولكن ما الذي سنقوله لبعضنا عندما نلتقي بعد ثمانية أيام؟ أنا لدي الكثير من الأشياء لأقولها لك، لكن فيما يخصك، أعتقد أنه لن يكون في جعبتك كلمات أكثر وقعاً من تلك التي تبعثينها إلي في رسائلك الرائعة!

إلى اللقاء، لن أرسل لك قبلاتي ولن أختم بها رسائلي كما اعتدت لأنك ما عدت تريدين ذلك، بل إنها تثير غضبك في الآونة الأخيرة، أَلَمْ تقولي إن قبلاتي (مجرد ذكرى مُنْفَلِتَةٍ للحظة متعة جسدية)؟ حسناً!

* * *

السبت (19 ديسمبر 1846)، الحادية عشرة مساء

أنت تعاملينني بقلة أدب! فقد أصبحت لا توجهين إلي شيئاً عدا الإهانات والشتائم، وتصفينني في كل رسائلك بالفظّ والبخيل، هذا لطيف جداً منك! أعتقد أنه بسبب طبعك كامرأة جنوبية، لذا سأتجاهل كل إساءاتك ولن أعتبرها أمراً مهماً، وأُؤكِد لكِ، يا صديقتي العزيزة، أن ما قُلْتِهِ أشعرني برغبة لا تقاوم في الضحك بدل أن يثير غضبي. ومع ذلك، لا بدّ من أن أنبهكِ إلى أن أسلوبك يفتقر بعض الشيء إلى اللباقة، إضافة إلى استخدامك المكثف لتلك العبارات التي اعتادت النساء على ترديدها! من قبيل: «أنتم الرجال متشابهون! إلخ..».

يبدو أن للفتيات اللواتي عرفتهن قبلك مكانة خاصة في قلبك، كنت تستحقين أن تولدي رجلاً! إن روحك مسكونة باستحضارهن، التحامل عليهن ومهاجمتهن بعنف وقسوة، صدقيني، إن الأمر لا يستحق كل هذا الغضب، ولا تنسي نصيحة الحكيم: «أيها الإنسان، لا تتحدث عما تجهله!».

إذا كان هذا الموضوع يثير اهتمامك، يمكنني، إذا سنحت لي الفرصة، أن أوافيك بعَرض مفصل يتناول نظرياتي حوله والتي أعتبرها صائبة، إذا كان هناك شيء صائب في هذا الواقع المعقد.

لا تشغلي نفسك كثيراً بشأن صحتي، إن ما يحدث لي وما أقوم به لن

يغيرا من الحقيقة شيئاً، والحقيقة هي أنه لا الحزن، ولا المتاعب، ولا حتى الملل ما يسبب لنا المرض أو يؤدي إلى وفاتنا، فالحزن لا يقتلنا، بل إننا نحيا به ونقتات عليه، إنه يقوينا! علاوة على ذلك، لم أنعم أبداً بصحة جيدة كهذه التي أنعم بها حالياً، لأنني لم أعش من قبل في توافق وانسجام مع طبيعة كياني، غير أنني أعتقد أني وجدت التناغم الآن، بعدما صرتُ مثل عازف يُدَوْزِنُ كمانه، بحيث يقوم بتدوير أوتاده ليضبط الأوتار وتكون الأنغام الموسيقية متناسقة. ليس من السهل أن يعثر المرء على طريقه الخاص، ثمة العديد من الطرق لم يستكشفها مسافر قطّ والعديد من المسافرين الذين ما زالوا يبحثون عن دربهم الخاص.

أود أن أوضح لك أنني لست كما تتخيلني، مستسلماً لعَبث الخيالات المفرطة، فأنا أشتغل بطريقة بسيطة للغاية ومنتظمة، إلا أنني الآن لم أعد أكتب، فما الجدوى من الكتابة؟ إذ إن كل الكلمات الجميلة قد قيلت بالفعل، وبشكل رائع من أولئك الأدباء الذين سبقونا بكثير، ولهذا أظن أنه عوضاً عن تأليف كتب جديدة، سيكون من الأفضل أن نكتشف دُرراً ولآلئ كامنة في طيات المجلدات القديمة، ويهيأ إلي أنه في الأوقات التي يقل فيها إنتاجي الأدبي، أنني أمضي لحظات ممتعة أتأمل فيها أعمال السادة المبدعين العظماء. وبما أن أكثر ما يهمني هو قضاء وقت ممتع وبهيج، فإنني أتشبث بهذه القراءات الرفيعة بقوة!

لقد ناديتني بلقب البراهما! إنه شرف كبير جداً لي، أتمنى بشدة أن أكون مستحقاً له، إن نمط حياة البراهمة يغريني بجنون، كم أود أن أعيش في غاباتهم، وأن أدور مثلهم في رقصات روحانية، وأن أنصهر كليّاً في ملكوت عالمهم الصوفي، ما أروعهم بشعورهم الطويلة ووجوههم

المتلألئة المدهونة بالزبدة المقدسة! وصيحاتهم التي يتردد صداها ويمتزج بأصوات الفيلة والثيران.

في السابق، كنت أحلم بأن أكون راهباً من رهبان العهد القديم، وبعدها رغبت في أن أصير تركيا مرتداً. أما الآن، إما أن أكون براهما أو لا شيء!

أنت مخطئة تماماً إذا اعتقدت أنني شخص بائس غير قادر على فهم الشعر الحماسي، على العكس أنا معجب به كثيراً، لكن ما يُزعجني ويصيبني بالضجر حينما أقرأه هو تلك الكلمات الزائدة التي لا تعكس فكرة واضحة.

لقد كنت قاسية حقّاً مع ذاك الكاتب المسكين المسمى «شود إيغ»! والكلمة التي قلتِها له ذات ليلة عندما كان يحدثك عن حبه لك، هي واحدة من تلك الكلمات القاتلة التي تستخدمها النساء بشراسة قلّما نجد مثيلاً لها.

ماذا فعل لك حتى تعاملينه بقسوة مماثلة؟ لا شيء على الإطلاق، كان خطأه الوحيد هو أنه لم ينل إعجابك، هذا كل ما في الأمر.

شكراً لك على الأبيات التي ترسلينها إلي، لم تكن علاقتك بي عديمة الجدوى، فهي مثل بصيص ضوء في ظلام حالك ساعدك على الاهتداء إلى بعض الأبيات الشعرية، أحياناً ما يبدو تافهاً وبسيطاً يمنحنا إلهاماً سامياً، ويُعتقد أن قصائد الشاعر الإغريقي «ثيوقريطيس» التي أقرأها الآن، قد استلهمها على الأرجح من راعٍ بسيط من جزيرة صقلية، كانت تفوح من قدميه رائحة كريهة قوية، إن الفن يستمد عَظَمَتَهُ من كونه يُحيل التراب ذهباً مثل «ميداس».

إلى اللقاء عزيزتي، أمسح دموع مقلتيك الحزينتين، وأغمرهما بالقبلات.

* * *

الأحد (20 ديسمبر 1846)

أنت تستفسرين عن أمور جلية لا تحتاج إلى توضيح، لقد أفرغتُ لك كل ما في جعبتي وأنتِ على علم بكل شيء، فماذا تريدين أن أضيف؟ إذا كانت شخصيتي الغامضة تسبب لك الألم، رغم مشاعر الحب التي تربطك بي أنا الرجل البائس، فلا تترددي في التخلي عني، لكن إذا كان التخلي عني مستحيلاً بالنسبة إليك، فتقبليني كما أنا من الآن فصاعداً، إن لقاءك بي وتعرفك علي كان بمثابة لعنة حلت عليك، لأنني بلغت نضجاً يصعب معه أن أحبك على النحو الذي تأملينه، إلا أنني لا أستطيع أن أشرح لك لماذا قررت الاستسلام هذه المرة لإغواءات الحب، لكنك أغريتني، رغم حيطتي الشديدة من الأشياء المُغرية.

تتوارى شيخوخة فريدة من نوعها وراء سحنتي الشابة، ولا أعلم ما هو الأمر الذي أحالني عجوزاً منذ المهد، وجعلني أشمئز من السعادة قبل أن أتذوق طعمها، كل ما في الحياة يثير في نفسي الاشمئزاز، وكل ما يجذبني إليها ويورطني فيها يسبب لي رعباً شديداً، وددت لو كنت أنا والعَدَم سواء.

أشعر في أعماقي الدفينة بانزعاج عنيف، موغل في الحميمية والمرارة، يمنعني من الاستمتاع بأي شيء، ويملأ روحي حدّ الاختناق، إنه يُكَدِّرُ علي عيشتي بلا انقطاع، إذ إنه يطفو ويعود دوماً مثل جثث الكلاب المنتفخة التي تطفو على سطح الماء، رغم الحجارة المربوطة بأعناقها بهدف جرها إلى

الأعماق. عندما صرختُ بملء فمي منذ اللحظة الأولى، لأنبهك بسذاجة وبصدق لم يروقاك كثيراً إلى أن اختيارك لي لم يكن موفقاً، لذا عليك أن تنسيني، وأن تدركي أن من تخاطبينه مجرد شبح وليس إنساناً حياً، رفضت تصديقي، مع أنه كان عليك أن تصدقي ما اعترفت لك به.

إنك تحكمين علي أحكاماً خاطئة! أرجوك لا تخصي قدراتي الفكرية بهذا التقدير الكبير، لأنني لا أطمع إلى أن أصبح عظيماً مثل «غوته»، لأن الشموع تفقد وهجها أمام نور الشمس الساطع، وعلى الرغم مما تعتقدينه، فأنا لا أسعى لمُحاكاة أحد، خاصة العظماء.

أما قلبي، فإن شرايينه قد أوشكت على النضوب لذا لا يتدفق دمه بسهولة، إنه يتماهى مع نهر السين (في منطقة «كيلبوف»)، مليء بالمياه الضحلة والأعماق المتحركة، لذا فُقدت فيه العديد من السفن.

أشعر بنَدم شديد لأنني لم أستطع أن أمنحك الحبّ الذي تستحقينه، والذي يليق بك، إنني أباركك من أعماق قلبي، وفي الوقت نفسه، تغريني رغبة عابرة في اجتثاثه من صدري لأنه آذاك كثيراً، لكن على من يقع اللوم؟ لا أحد منا قد أخطأ، إن الحياة والقدر هما المسؤولان دوماً عن معاناتنا!

عندما نبحث عن المتعة نعثر عليها، لكن السعادة تشبه مُرابياً جشعاً يجعلنا ندفع له أضعافاً مضاعفة مقابل إقراضه لنا بضع لحظات من الفرح، فصدقيني إذا ما قلت لك إنني ما كنت سأحبك أبداً لو كنت في نظري مجرد امرأة تمنحني المتعة فقط، لكن ربما كان من الأفضل لنا أن نكتفي بتلك اللحظات من المتعة المختلسة، وربما كان علينا التوقف عند ذلك الحدّ، كي لا نضيع في متاهات الحبّ.

على المبدع أن ينذر حياته للفن، وألا يشغل فكره بأي مصدر إلهاء ويكتفي بتأمل الجمال الكامن في هذا العالم، وأن يرسو بجسده حيثما وجد السكينة، كما عليه أن يخفي محفظته في عمق جيبه، لكن الأهم هو ألا يعلق آماله على أي شخص أو شيء.

إلى اللقاء، حاولي أن تنسيني، أما أنا فلن أنساك أبداً. لقد ارتكبتِ خطأً عندما قلتِ إنني انجذبتُ إليك بِدَافع الفضول وحسب، لأنه ثمة أشياء كثيرة أغرتني بالتقرب إليك، ولكن هكذا هي آراؤك دوماً، متناقضة حدّ التطرّف.

إلى اللقاء مرة أخرى، وتأكدي من أنك أنَّى احتجتني، ستجدينني دوماً إلى جانبك.

* * *

(بدون تاريخ)

ما معنى ما تقومين به؟ هل هو تَحَدٍّ؟ نُكُوصٌ؟ سخرية؟ إنني حائر! كل ما أعرفه أن حبك راسخ في قلبي، أجل، في هذا القلب الذي تقولين إنه يعوزه الوفاء (كقلوب الرجال الآخرين)، قد تكونين محقة، ربما قلبي ليس كقلوب الرجال الآخرين، لسوء الحظ! لمَ لا تكتبين إلي رسائل أخرى لنتواصل بشكل روحي وفكري على الأقل؟ إنني أود أن أعرف أخبارك، فأنا لا أرى أي داعٍ لقطع علاقتنا كليّاً، لأن ذلك سيكون بمثابة اللجوء إلى الكَيِّ بالنار عوض تجريب المراهم والكمادات أولاً لتخفيف الألم.

قبل فترة، كنت أبدو رائعاً في نظرك، أما الآن فإنك تجدينني رجلاً مثيراً للشفقة، لكنني لست هذا ولا ذاك، على أية حال، لست وغداً كالرجال الآخرين.

إنك تلومينني قائلة إنني أحب العاهرات، إنك مخطئة بالكامل! إن معاشرة العاهرات تصيبني بالضجر، لأنهن ما عدن كما كن من قبل، بل إنهن لا يشبهن في شيء الملهمات السفليات في الأساطير المفقودة، لذا توقفت عن معاشرتهن، بعدما يئست من العثور على تلك الملهمة السفلية!

تقولين إن سخريتي قد قتلت حبك لي، ولكنني لم أسخر منك أبداً! إلا أنك أنت ترغبين في تأويل كل ما أقوله لك كما شئت، أتدرين، عندما نكون على استعداد لرؤية السخافة والابتذال في كل مكان، فإننا نفقد

قدرتنا على تمييزهما. بالنسبة إلي، لا شيء يضاهي الحزن الذي تسببه لي رؤية تماثيل الكاتدرائيات، مع أنها تلوح دوماً مبتسمة، إنها تحزنني لأنني أعلم جيداً أنه ثمة العديد من الأشخاص الذين تتماهى أرواحهم مع هذه التماثيل، وأنا مثلهم!

إذا لم تعودي تحبينني كالسابق، دعيني أكون صديقك على الأقل! وهكذا ستسنح لي الفرصة كي أنير قليلاً عتمة حياتك تحت مسمى الصداقة، بعدما عجزت كحبيب على أن أغمرها بالنور الوهاج لشمس الحبّ، لذا، عندما تشعرين بالملل، وعندما تحتاجين إلى شخص تبثين له حزنك وشكواك، اكتبي لي، واحكي لي تفاصيل حياتك اليومية، وقولي لي كل ما ترغبين في قوله..، ولكن إذا قررت أن نتوقف عند هذا الحدّ وأن ننهي علاقتنا، فأنا لن أعارضك، وثقي بأن يدي التي تخط لك هذه الرسالة، ستظل ممدودة إليك على الدوام، ولن تُفْلِتَ يدك أبداً!

* * *

(بدون تاريخ)

يتعذر علي أن أستمر لمدة أطول في مراسلة تصير متشنجة يوماً بعد يوم، فغيّري أسلوبك معي رجاءً! ترى ما الذي فعلته لك لتستعرضي بكبريائك المجروح لوحة يأسك وعذاباتك التي لا أعلم كيف السبيل إلى تهدئتها؟ لو كنت قد أعلنتُ علاقتنا، أو سَلَّمْتُكِ إلى أعدائك، أو بِعْتُ رسائلك.. إلخ، ما كنتِ لتكتبي لي كلمات فظيعة ومؤسفة إلى هذا الحدّ. يا إلهي، ما الذي فعلته؟ ما الذي فعلته لك؟

إنك تعرفين أنه ليس بمستطاعي القدوم إلى باريس، وإلحاحك علي يجبرني على الرد عليك بطريقة عنيفة، لكنني مهذب لذا لن أرد عليك ردوداً فظّة، سيما وأنني كررت لك مرات عدة الإجابة نفسها، وأعتقد أنك تتذكرينها جيداً.

كنت قد كَوَّنْتُ فكرة مغايرة تماماً عن الحب، إذ كنت أخال أنه لا بدّ من أن يكون متحرراً من كل شيء، ولهذا بالنسبة إلي، فإن الحب لا يتأثر أبداً بالغياب، بالغضب أو الإهانات.. لأننا حينما نحب بصدق، يمكننا ألا نرى محبوبنا طيلة عشر سنوات دون أن نعاني من غيابه.

تزعمين أنني أعاملك كامرأة دنيئة، لكنني أؤكد لك أنني لا أعرف كيف أميز بين النساء الدنيئات ولا النساء النبيلات، لأن ما يرفع أو يحط من قدرهن بالنسبة إلي هو جمالهن والجاذبية التي يغويننا بها، أترين كيف

أن أفكاري ديمقراطية مع أنك تتهمينني بكوني أرستقراطياً. من الوارد أن العلاقات التي تكون فيها العواطف معتدلة هي التي يُقَدَّرُ لها الاستمرار كما قلتِ، لكنك هكذا تحكمين على نفسك بالفشل لأنك لا تعرفين معنى الاعتدال العاطفي! أما أنا فقد سئمتُ من قصص الشغف المشتعل، من المشاعر المتفجرة، من الحب العاصف واليأس الصارخ، لأنني قبل كل شيء أحبُّ العقلانية، ربما لأنني لست عقلانياً، من يدري؟

لا أفهم غضبك المستعر واستياءك الدائم، إنك تجانبين الصواب، مع أنني أعلم أنك إنسانة طيبة، متميزة، ومحبة، ولهذا لا يمكنني أن أمنع نفسي من لومك لأنك تفسدين كل الأشياء المميزة وكأنك تستقين المتعة من تصرفاتك هذه.

اهدئي، واكتبي، وإذا ما التقينا مجدداً، أتمنى أن تستقبليني بضحكة رنانة وأن تعترفي بأنك كنت حمقاء!



"قطع أدبية باذخة التأثيرلم تخدشها القواميس، ولم ينل منها الزمان".

في يوليو، 1846، التقى فلوبير الذي لا يتجاوز ربيعه الخامس والعشرين، بالشاعرة الشهيرة "لويز كوليه"، داخل ورشة صديق مشترك. ومذ ذاك، رمى كيوبيد سهام الحب في قلب فلوبير الذي اختار لويز، التي تكبره بأحد عشر عاماً، حبيبة وملهمة، حتى قال فيها: "لم يحب ولن يحب أبداً امرأة مثلما أحبها"..

كان عام 1846 قاس على فلوبير، إذ فقد فيه والده وشقيقته، وأحس بالضياع وانعدام شغفه بالحياة والكتابة، غير أن وقوعه في حب لويز، الفاتنة والمتوجة بجوائز الأكاديمية الفرنسية، جعله يسترجع حيويته ويفكر في أحلامه المؤجلة.

في هذه الرسائل أحادية الصوت، نتعرف على وجه آخر للروائي الخالد، نقترب أكثر من جانبه الإنساني، من عفويته، مخاوفه، أحلامه، آرائه الأدبية والحياتية، ذوقه القرائي، وكذا حساسيته الروحية، تأثره السريع، معاناته مع المرض، وشعوره الدائم بالاغتراب والملل، كما نكتشفه عاشقاً، وكاتباً مبتدئاً لا يحلم بالمجد والشهرة، أو باعتراف النقاد والكتاب الكبار، بقدر ما يحلم بإنجاز تحف أدبية على درجة كبيرة من الكمال، لذا نجده يقرأ كثيرا ويكتب قليلا، ويمضي وقته في إعادة كتابة وتنقيح مسوداته، كونه يقدس للغاية مهنته ومهمته ككاتب، ويؤمن بضرورة التناغم المثالي بين الأفكار والأسلوب..

ثمة اعتقاد بأنّ فلوبير هو أعظم مبدع كتب الرسائل، بل أن عذوبة رسائله تضاهي جمالية رواياته، وفي هذه الرسائل، نكتشف بدايات الحب الأكثر تأثيراً في حياته، والتي يشاع أنها ألهمته بناء شخصيته الروائية الشهيرة "إيما بوفاري".

عام أدب الكتابة والقراءة 2025 دار الرافدين

تصميم الغلاف: ماهر عدنان